TAS_200_2013/01

الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد Université Abou Bekr Belkaid

تلمسان الجزائر

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

تخصص: حضارة عربية إسلامية

2013
Facult

مذكرة لنيل شهادة الماستر

الموسومة بـ

التفكير الحضاري في القرآن

- قراءة في كتاب منهج الحضارة الإنسانية في القرآن للبوطي-

إعداد الطالبة:

خيرة ضحّاك

إشراف :

د.عبد الحفيظ بورديم

السنة الجامعية: 1432-1433هـ/2011-2012م

الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد Université Abou Bekr Belkaid

تلمسان الجزائر

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

تخصص: حضارة عربية إسلامية

مذكرة لنيل شهادة الماستر

الموسومة بـ

التفكير الحضاري في القرآن

- قراءة في كتاب منهج الحضارة الإنسانية في القرآن للبوطي-

إعداد الطالبة:

خيرة ضحّاك

إشراف :

د.عبد الحفيظ بورديم

السنة الجامعية :1432-1433هـ/2011-2012م

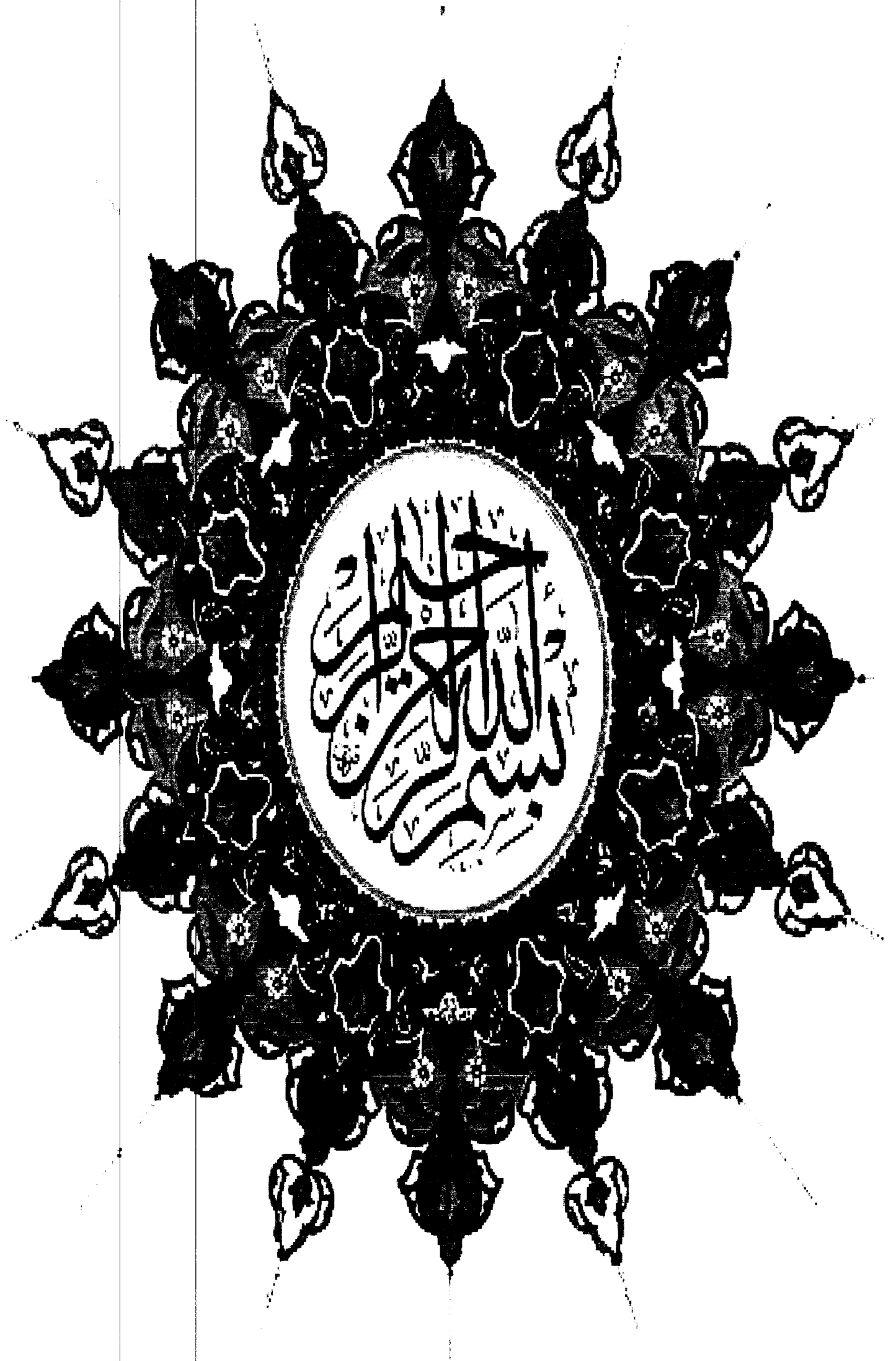
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و تقدير:

الحمد و الشّكر لله أوّلا و آخرا، لأنّه و فّقني لإتمام هذا البحث.

كما أتقدّم بأسمى آيات الشّكر والامتنان و التّقدير إلى الّذين حملوا أقدس رسالة في الحياة، إلى الّذين مهّدوا لنا طريق العلم و المعرفة، إلى جميع الأساتذة الأفاضل.

وأخصّ بالذّكر أستاذي المشرف **بوردیم عبد الحفیظ**،الّذي تابع هذا البحث وأفادني بنصائحه وتوجيهاته القيّمة.

ولا أنسى أن أتقدّم بخالص شكري و امتناني للأستاذين المحترمين **بوشيبة عبد القادر** و **مصرتي أمين** الّذين تابعا معي هذا البحث ووجّهاني لما فيه عظيم الفائدة.

وأشكر الأستاذ المناقش الّذي تجشّم عناء قراءة البحث وتصويبه، فله منّي خالص شكري و تقديري.

كذلك أشكر كلّ من ساعدني، وقدّم لي يد العون، وزوّدني بكل ما هو مفيد.

إهداء:

بدأنا البحث و عانينا الكثير، وها نحن اليوم والحمد لله نطوي سهر اللّيالي و تعب الأيّام و خلاصة المشوار بين دفّتي هذا العمل.

إلى منارة العلم و قدوة كل عالم و متعلّم، رسولنا الكريم محمّد صلوات ربّي عليه و سلامه.

إلى من غابت و لم تتمتّع العين برؤيتها، ولكنّ حضورها دائم في القلب.....إلى روح أمّي.

إلى الينبوع الّذي لا يملّ العطاء، إلى من تصنع سعادتي بخيوط منسوجة من قلبها.....إلى أمّي الحبيبة.

إلى مثل الأبوّة الأعلى، رمز النّضال.....أبويّ العزيزين.

إلى من حبّهم يجري في عروقي، ويلهج بذكرهم فؤادي.....إخوتي و أخواتي.

إلى من سكنت روحه روحي، وكان عونا وسندا لي منذ أن عرفته.....زوجي "**محمّد**".

إلى جميع رفيقات الدّرب، اللّواتي كنّ خير صحبة.....صديقاتي العزيزات.

إلى كل محبّ وعاشق للّغة العربية.

إلى من نبتنا في أرضها، و ننعم بخيراتها،

إلى أرض الكبرياء والشّهداء.....بلادي الجزائر.

إلى كلّ هؤلاء أهدي ثمرة جهدي،

المقدّمة

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين .

الحمد لله الّذي خلق الإنسان، علّمه البيان.

والصّلاة و السّلام على المختار من خيرة بني آدم، الّذي بلّغ الأمانة و نصح الأمّة وهدى النّاس إلى ما فيه فوزهم و سعادتهم في الدّنيا و الآخرة، وعلى آله وصحبه و من اهتدى بهديه وتأسّى بسنّته إلى يوم الدّين.وبعد:

فإنّ موضوع الحضارة من الموضوعات المهمّة الّتي لها مساس كبير بحياة الإنسان، ولا معنى لدراسة الحضارة بعيدا عن المصدر الأساسي لقيام الحضارات المتمثّل في القرآن الكريم. هذه الأهمّية هي الّتي جعلت الكثير من العلماء قديما وحديثا يخوضون في موضوع الحضارة، و البعض منهم ربط دراسته للحضارة بالقرآن الكريم.ولعلّ أبرز من قام بذلك في عصرنا الحالي **محمّد سعيد رمضان البوطي** وذلك في العديد من كتبه وخاصّة كتابه المعنون بمنهج الحضارة الإنسانية في القرآن.

ولقد كانت عظمة القرآن الكريم ،و الطّريقة الّتي تناول القرآن بها الحضارة من حيث عوامل قيامها أو عوامل سقوطها محفّزا أكيدا لي على اختيار موضوع في رحاب القرآن،وقد ارتأيت عنونته ب "**التّفكير الحضاري في القرآن الكريم "قراءة في كتاب منهج الحضارة الإنسانية في القرآن للبوطي"**".ورغم أنّي قد سجّلت بحثي بهذا العنوان إلاّ أنّني وبعد البحث فيه تبيّن لي أنّ القرآن ليس تفكيرا ولكنّه تأسيس للتّفكير،وعليه فإنّني أميل إلى إعادة صياغة عنوان البحث بهذا الشّكل "**التّأسيس القرآنيّ للتّفكير الحضاريّ "قراءة في كتاب منهج الحضارة الإنسانية في القرآن للبوطي"**".إضافة إلى الدّوافع السّابقة الّتي حفّزتني على اختيار هذا الموضوع ،فإنّ دراستي لكتاب **البوطي** دون غيره إنّما مردّه إلى الدّقة والجمالية والبساطة الّتي عالج بها البوطي موضوع الحضارة ،و الكيفية الّتي بيّن من خلالها الصّلة الوثيقة بين القرآن و قيام الحضارات الإنسانية وسقوطها. فما معنى الحضارة؟ وما هي النّظريات الحضارية الّتي أسّست عنها ؟وكيف تناول القرآن الحضارة؟ وما هي الطّريقة الّتي عالج بها البوطي موضوع الحضارة في كتابه؟.هذه الأسئلة و غيرها حاولت الإجابة عنها من خلال خطّة بحث توصّلت إليها بعد قراءات وتمحيص؛ فمهّدت للموضوع بمدخل عرّفت فيه الحضارة لغويا و اصطلاحا،و تضمّن البحث ثلاثة فصول،تطرّقت في الفصل الأوّل لنظريّة الحضارة عند العلماء،فتحدّثت في المبحث الأوّل عن الحضارة عند العلماء الغرب واقتصرت على عالمين اثنين هما **اشبنجلر** و **توينبي**، أمّا المبحث الثّاني فخصّصته للحضارة عند

العرب ،وذكرت عالمين كانا سبّاقين لتأسيس نظرية حضارية وهما **ابن خلدون ومالك بن نبي**.وفيما يخصّ الفصل الثّاني فقد ضبطته بعوامل قيام الحضارة و سقوطها من القرآن، وقفت فيه عند مباحث ذات صلة بالقرآن، بدأتها بعوامل قيام الحضارة من القرآن في المبحث الأوّل، ثم انتقلت في المبحث الثّاني إلى عوامل سقوطها منه.

وكان أن خصّصت الفصل الثّالث لدراسة كتاب منهج الحضارة الإنسانية في القرآن **للبوطي**، فبيّنت عناصر الحضارة حسب **البوطي** في المبحث الأوّل،لأنتقل إلى ذكر أسباب تحجّر الحضارة الإسلاميّة و ازدهار الحضارة الغربيّة في المبحث الثّاني،وختمت الفصل بالحديث عن كيفية انبعاث الحضارة الإسلامية من جديد.

وقد أنهيت البحث بخاتمة رصدت فيها أهمّ ما توصّل إليه البحث من نتائج،وأتبعت الخاتمة بملحق عرفت فيه بالبوطي.

ولقد اتّبعت في هذا البحث منهجين اثنين افوظّفت المنهج الوصفيّ لمّا عرّفت الحضارة و ذكرت بعض النّظريات الّتي أسّست فيها،و لم يكن من غنى عن المنهج التّحليليّ الّذي ساعدني على دراسة الحضارة في القرآن ،وفي تناول نظرة البوطي للحضارة من خلال كتابة السّابق الذّكر.

وأعانني في إنجاز البحث عدّة مصادر و مراجع من أهمّها: كتب **البوطي** وخاصّة **"منهج الحضارة الإنسانة في القرآن"**،كتب **مالك بن نبي** حول مشكلات الحضارة مثل كتاب **"تأمّلات"**،إضافة إلى كتاب **"سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها "** لصاحبه **محمّد هيشور**.

و الحمد لله لم تعرقل بحثي أيّة مشاكل تستحقّ الذّكر إلاّ صعوبة واحدة و هي ضيق الوقت ،لأنّ مثل هذه المواضيع الّتي لها علاقة بالقرآن تحتاج إلى وقت كبير من أجل إيفائها حقّها،ومن أجل التّوسّع فيها قدر الإمكان.

و لا يسعني إلاّ القول إنّ هذا البحث محاولة تدبّر في أقوم منهج، وأعظم دستور منظّم لحياة البشريّة.

وأنهي حديثي بالتّنويه بدور الأستاذ المشرف و العناية الفائقة الّتي أحاط بها هذا البحث، فله منّي جزيل الشّكر وعظيم العرفان.

و لا أملك إلاّ الدّعاء بأن يتجاوز الله هفواتي، وإن وفّقت إلى شيء **"فَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ"**.

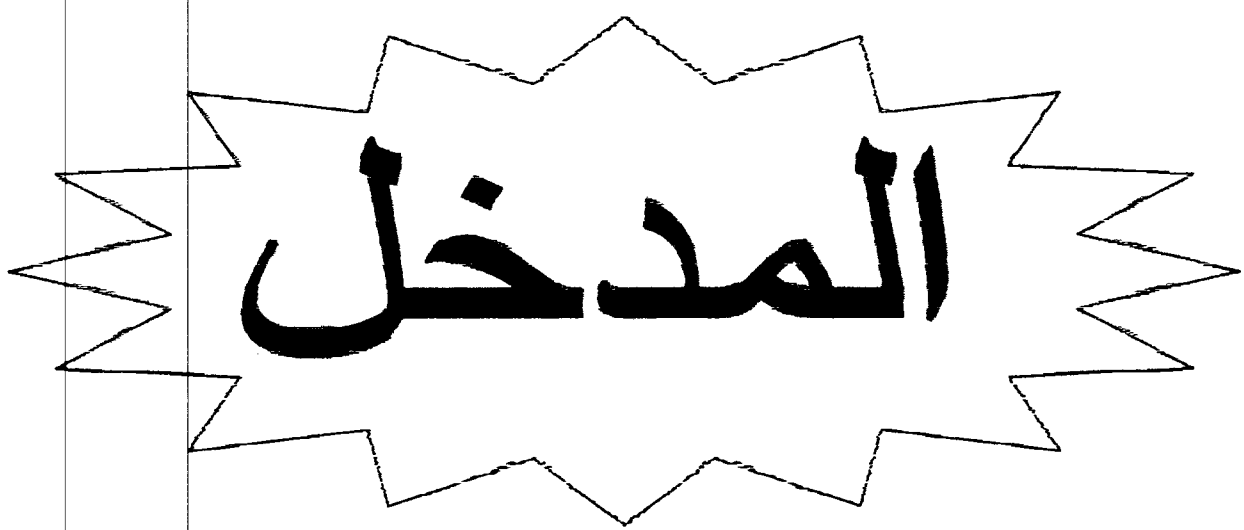
المدخل

يسعى الإنسان دائما إلى الرّقيّ وبلوغ درجات عليا من التطوّر. وقد عرف تاريخ البشرية محاولات كثيرة حقّق من خلالها الإنسان مطامحه، وبلغ ذروة النّجاح و الازدهار، وهذا الإنجاز الّذي توصّل إليه الإنسان يسمّى " حضارة" .

و لقد قُدّم لمفهوم الحضارة تعريفات عدّة تتنوّع بين ما هو لغوي وما هو اصطلاحي.

فلنبدأ أوّلا بالتّعريفات اللّغويّة.

ا- تعريف الحضارة لغة:

*ورد في لسان العرب" **لابن منظور**": أنّ الحاضر هو المقيم في المدن والقرى، وأنّ البادي هو المقيم في البادية[1]. و الحاضرة و الحضرة والحضارة، خلاف البادية [2].

*و جاء في المصباح المنير: الحضر بفتحتين خلاف البدو و النسبة إليه حضري على لفظه، وحضر أقام بالحضر ، والحضارة بفتح الحاء وكسرها سكون الحضر[3].

*ويوضح **ابن منظور** أنّها: المدن و القرى والرّيف، وقد سمّيت بذلك لأنّ أهلها قد حضروا الأمصار ومساكن الدّيار الّتي يكون لهم بها قرار[4]. فالحضارة إذن هي الإقامة في الحضر.

*إضافة إلى هذا نجد" **أندريه لالاند** " Andre Lalande في موسوعته الفلسفية يعرّف الحضارة بأنّها: "مجموعة ظواهر اجتماعية مركّبة ذات طبيعة قابلة للتّناقل تتّسم بسمة دينيّة، أخلاقيّة، جماليّة، فنّية، تقنية أو علمية ومشتركة بين كلّ الأجزاء في مجتمع عريض أو في عدّة مجتمعات مترابطة"[5].

و نستخلص من هذا التّعريف أنّه يوضّح ما تقوم عليه كلمة حضارة من خصائص دينيّة وأخلاقيّة وجمالية وفنية، كذلك ما تضمّنته من تطوّر علميّ و تكنولوجيّ، سواء كان هذا خاصّا بمجتمع واحد أو بعدّة مجتمعات.

1- ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ح.ض.ر)، مج2، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص :103 .
2- الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مادّة(ح.ض.ر)، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع،القاهرة، ط1، 1429ه، 1998م ،ص : 376
3- الفيّومي : المصباح المنير، تح: يحي مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ص1، 1425ه، ص: 87 .
4-ابن منظور:لسان العرب،مج2،ص:103.
5-أندريه لالاند:موسوعة لالاند الفلسفية،تر:خليل أحمد خليل،مج ،منشورات عويدات،بيروت،ط2، 2001 م،ص:172.

لا نجد هذه التعريفات فقط بل تضاف إليها تعريفات أخرى، من أمثلتها:

*الحضارة مشتقّة من الفعل حضر حضورا أو حضارة. و الحضور ضدّ المغيب ولكن أصل الحضور المقصود هنا يكون إلى موارد الماء، وذلك يقال في اللّغة للمنَاهل المحاضر، وذلك للاجتماع و الحضور عليها، ولمّا كان تجمّع النّاس في مواطنهم لا يكون إلاّ حول الماء أو بالقرب منه. لذلك أطلقت كلمة الحاضرة و الحضرة و الحضر على المدن و القرى والرّيف.وأصبحت هذه الكلمة خلاف البادية و البداوة والبدو. و الحواضر أقدم من كلمة البادية و البوادي[1]، رغم ما هو معروف من " أنّ البدو أقدم من الحضر وسابق عليه"[2].إذن الحضارة تدلّ على الاستقرار و التجمّع في القرى والمدن والرّيف.

وهذه الكلمة في لغتنا تقابل البداوة أو الهمجية و التوحّش، والحاضرة: مقابل البادية، و الحضر مقابل البدو. وأهل الحضر هم أهل المدن و القرى و الرّيف و البدو و أهل الخيام[3]. وبهذا المعنى استعملها الشّاعر "**القُطامي**" في قوله مفتخرا ببداوة قومه، مستخفّا بساكني القرى و المدن[4].

فَمَنْ تَكُنْ الحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيّ رِجَالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا!؟

وهناك لفظان آخران وثيقا الصّلة بكلمة الحضارة ولهما شأن كبير في حياتنا ،وهما: الثّقافة والمدنيّة.

*أمّا الثقافة فأصلها في العربيّة : التّهذيب و التّقويم و الحذق و الفطانة، وفي الاستعمال الحديث تعرّفها المعاجم بأنّها: العلوم والمعارف والفنون الّتي يطلب الحذق فيها. وهي تشمل كلّ ما يتّصل بالرّوح والفكر والعقل والذّوق والمشاعر وهي حصيلة الحياة الإنسانية في هذه المجالات كلّها[5]. إذن الثّقافة تتّصل بالإبداع في كلّ المجالات و في أيّ مجتمع سواء كان متطوّرا أم متخلّفا بخلاف الحضارة الّتي تدلّ على التطوّر و الازدهار ،وهذا ما يثبته " **عبد المنعم الحفني**" في قوله الّذي يبيّن فيه الفرق بين مصطلحي الحضارة و الثّقافة: " أخذت تطلق على مظاهر الحياة المتقدّمة و المتطوّرة في المجتمعات الفنّية والآلات

1 – نبيلة حسن محمد : في تاريخ الحضارة الاسلامية، دار المعرفة الجامعية، (د.ط)، (د.ت)، ص :8 .
2 – ابن خلدون: المقدّمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،ط1 ، 1427 ه، 2007م، ص :136.
3 – يوسف القرضاوي: السنة مصدر للمعرفة و الحضارة، دار الشروق، مصر،ط3، 1423 ،2002م، ص:201 .
4 – محمّد حسين: الإسلام و الحضارة الغربية، دار الفرقان، (د.ط)، (د.ت)، ص:6 .
5– عبد الحفيظ حسين حسن: العلم و الحضارة في الإسلام، مجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، ط2، 1310، 1970م، ص:57 ، 58.

والخبرة في ميدان الإنتاج، والثروة المادّية، أمّا الثقافة فأصبحت تطلق على مظاهر الحياة الرّوحية الفكرية وفي كلّ مجتمع، متقدّما كان أم متخلّفا"[1].

وبالنّسبة للفظ المدنيّة فأصله مادّة مدن و مدّن و هي متّصلة بالمدنيّة و العيش فيها، والأخذ بأسباب الحضارة، وقد اتّصل لفظ المدنية بالجانب المادّي و المظهر من الحياة وذلك من حيث مقوّماتها الطّبيعية ومنشآتها الملموسة، وكذلك من حيث الأنماط المعيشيّة في أسسها المادّية وفي صورها المحسوسة في حياة المجتمع[2].

ومنه نستخلص أن كلاّ من هذه المفاهيم الثلاثة (الحضارة، الثّقافة، و المدنيّة) متّصل ببعضه وإن كان لكلّ منها تعريف خاصّ ؛فالحضارة أعمّ من كلا المفهومين لأنّها تشمل كل الجوانب المتعلّقة بالحياة عكس الثّقافة الّتي تتّصل كثيرا بالجانب الرّوحي والفكري، والمدنيّة الّتي تتعلّق بالجانب المادّي والمظاهر المحسوسة.

1 -عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل- المصطلحات الفلسفية-، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر،ط3،2000م، ص:301.
2 -عبد الحفيظ حسين حسن : العلم و الحضارة في الاسلام، ص: 58.

ب- *تعريف الحضارة اصطلاحا:*

إنّ الحضارة كمصطلح – قديمة الظهور، ولقد قدّمت لها تعريفات شتّى شأنها شأن باقي مصطلحات العلوم الاجتماعية و الإنسانية.و لم تستقرّ على مفهوم واحد نظرا لكثرة العلماء والباحثين الّذين خاضوا غمارها، فمن العلماء العرب الّذين عرّفوا الحضارة وكانوا من الأوائل الّذين تطرقوا إليها- **ابن خلدون** – فقد قدّم لها تعريفا خاصّا بجانب التّرف في الحياة،إذ يقول:"و الحضارة كما علمت هي التّفنّن في التّرف و استجادة أحواله والتّكلف بالصّنائع الّتي تؤلّفه من أصنافه وسائر فنونه، ومن الصّنائع المهيّأة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الأبنية ولسائر أحوال المنزل... وإذا بلغ التأنّق في هذه الأحوال المنزليّة الغاية تبعه طاعة الشّهوات، فتتلوّن النّفس من تلك الفوائد بألوان كثيرة لا تستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها"[1]. فابن خلدون في تعريفه هذا يحصر الحضارة في جانب التّرف والصّنائع وإن كانت الحضارة كما سبق وأن عرّفناها لغة تشمل جميع جوانب الحياة وما يتّصل بالإنسان ،وهو يجعل الحضارة بمعنى العمران الّذي يعرّفه "بالاجتماع الإنساني"، ويجعل ابن خلدون للحضارة دورة تمرّ بها بطريقة حتمية.

*ويعرّفها **مالك بن نبي** بقوله :" هي جملة من العوامل المعنوية و الماديّة الّتي تتيح لمجتمع ما أن يوفّر لكلّ عضو فيه جميع الضّمانات الاجتماعية اللّازمة لتطوّره"[2]. فهو يربط في تعريفه بين الجوانب الماديّة والمعنويّة الضّرورية لكلّ فرد في المجتمع حتّى يحقق التّطوّر. و يعتبر **ابن نبي** أنّ للحضارة مراحل، كما يحدّد لها عناصر ويعرض المشاكل الّتي تمرّ بها أيّ حضارة، وسنتعرّف على ذلك بشيء من التّفصيل فيما سيأتي من مباحث.

*ويحاول **كميل الحاج** أنّ يحدّد مفهوم الحضارة، إذ يقول إنّها:" مجموعة الخصائص الّتي تتميّز بها المجتمعات المتطوّرة". ويحدّد لها – حسب رأيه- علماء الأنثربولوجيا اليوم معنيين:

أحدهما ذاتيّ و الآخر موضوعيّ:"أمّا المعنى الذّاتي فيطلق على مرحلة سابقة من مراحل التّطوّر الإنساني،

1- ابن خلدون : المقدّمة ،ص : 376.

2- مالك بن نبيّ : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر:بسّام الحركة،دار الفكر المعاصر،بيروت، لبنان،ط 1، 1988م،ص:42

المقابلة لمرحلة التّوحش و الهمجيّة"[1].

معنى ذلك أنّ الفرد إذا اتّصف بصفات راقية يطلق عليه فرد متحضّر، وإذا اتّصف بصفات همجيّة قلنا أنّه غير متحضّر.

وأمّا " المعنى الموضوعيّ فهو إطلاق لفظة حضارة على مجموعة من مظاهر التّقدّم العلمي والفنّي والتّقني الّتي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع واحد"[2] .أي كلّ مجتمع له مميّزاته ويمتلك مظاهر التّقدّم الّتي تنتقل من جيل إلى آخر نصفه بالمجتمع المتحضّر.

*ويعرّف **أحمد عبد الرّحيم السّايح** الحضارة بأنّها:" جملة المظاهر المعنوية الّتي يخلّفها التّاريخ والّتي تبقى في المجتمع على مرّ الأيّام دليلا على القدرات الذّهنية المميّزة، وتعبيرا عن روح هذا المجتمع والشّعب الّذي يمثله. وهذه المظاهر المعنوية تأخذ قوالب ماديّة مختلفة تتجسّم فيها تلك المعنويات، وتتشكّل المظاهر المعنوية في صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف، ومجموع ما ينتج عن ذلك كلّه من تسجيلات ومشاهد في الآثار والعمائر وأسلوب الحياة وآداب المعاش اليومي تقاليد المجتمع في التّقارب والتّفاهم والتّعايش"[3] .فالحضارة بحسب تعريفه تشمل الجوانب الماديّة و المعنوية وتتجسّد في جميع جوانب الحياة و طرائق العيش.

أمّا العلماء الغربيّون فانقسموا في رؤيتهم للحضارة إلى فريقين :

-فريق يرى أن معنى كلمة حضارة ينصبّ في اتّجاه النّظم الاجتماعية والثّقافية، فقد رأى الباحثون الأمريكيون والألمان هذا الرّأي وعلى رأسهم **وول ديوارنت** في كتابه **"قصة الحضارة"**حيث يقول: "إنّ الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزّيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألّف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصاديّة، والنّظم السّياسية والتّقاليد الخلقيّة، ومتابعة العلوم والفنون. وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب و القلق"[4].و الحضارة برأيه مشروطة بعوامل هي الّتي تساعد على الرّقي أو تعوق مسارها؛ أوّلها العوامل الجيولوجية، فالحضارة مرحلة تتوسّط عصرين من جليد.

---

1 -كميل الحاج: الموسوعة الميسّرة في الفكر الفلسفي و الاجتماعي، مكتبة لبنان، ط2، 2000م، ص: 206.

2 -المرجع نفسه،ص:205.

3-أحمد عبد الرّحيم السّايح: فلسفة الحضارة الاسلامية، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة ،ط1، 1410، 1989م، ص :121 .

4-ويل وايرل ديورانت:قصّة الحضارة، ج1 ، ترتزكي نجيب محمود،دار الجيل ،بيروت،لبنان،(د.ط)،(د.ت)،ص:3.

وثانيها العوامل الجغرافية وبضرب **ديورانت** مثلاً: بالأقطار الاستوائية الّتي تسودها حرارة مرتفعة تمنع المدينة من الظّهور فيسود بذلك الكسل والخمول في تلك المناطق عكس البلدان التي تملك تربة خصبة ومناخا ملائما.

إضافة إلى العوامل الاقتصادية التي لابدّ منها، فعلى الدّول أن تطوّر من أساليب عيشها وتستثمر ذكاءها فيما يسمح لها بتنويع طرق العمل حتى تعرف المدنيّة.

ولكنّ هذه العوامل وحدها ليست كفيلة بتحقيق الحضارة كما يذكر **ديوارنت**، بل تضاف إليها العوامل النّفسيّة الدّقيقة والقانون الخلقيّ الّذي يربط بين أفراد المجتمع.

وإذا انعدمت هذه العوامل تقلّبت أحوال الحضارة وتعرضت للفناء،فالمدنيّة (الحضارة) ليست فطرية بل يكتسبها الإنسان بفضل تربيته الّتي تعتبر وسيلة تنتقل بها الحضارة من جيل إلى آخر[1]. فالحضارة إذا تتشكّل بتظافر مجموعة من العوامل وتتحقّق بفضل تربية الفرد.

*ومن هؤلاء أيضا **ألبرت أشفيستر** فالحضارة في نظره هي :" بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النّوع الإنسانيّ وتحقيق التّقدّم من أيّ نوع كان في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي"[2]. كما أنّه يعتبر الأخلاق جوهر الحضارة.

-والفريق الثّاني من الباحثين وعلى رأسهم الفرنسيين يرون: أنّ الحضارة تضمّ عناصر أنشطة المجتمع المختلفة من فكرية وتكنولوجية، ويدمجونها تحت معنى واحد " المدنيّة" وهذه الكلمة مرادفة عندهم لكلمة الحضارة[3].

ولعلّ **صامويل هنتنغتون** في تعريفه للحضارة أكثرهم شمولا ودقّة، حيث جعلها تشمل جميع أنشطة الأفراد في المجتمع، وكافّة خصوصياتهم الّتي قد تميّزهم عن غيرهم، فيقول :" هي أعلى تجمّع ثقافيّ من البشر وعرض مستوى من الهوية الثقافية، يمكن أن يميّز الإنسان عن الأنواع الأخرى، وهي

1- المرجع نفسه: ص4، 7.

2- ألبرت أشفيستر: فلسفة الحضارة، تر: عبد الرّحمن بدوي، المؤسّسة المصرية العامة للتّأليف والترجمة والنّشر، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص:05.

3-شحادة النّاظور و آخرون: مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار الأمل للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1989م، ص: 10.

تعرف بكلّ من العناصر الموضوعية العامة، مثل اللّغة والتّاريخ والدّين والعادات والمؤسّسات والتّحقق الذّاتي للنّاس "[1].

ومن العلماء العربيّين الّذين كان لهم رأي شامل في تعريف الحضارة، وأطّل نظرية فيها **أرنولد توينبي** فقد ميّز في حديثه عن الحضارة بين ألفاظ أربعة " المجتمع، المجتمعات، الحضارة، والحضارات"، واعتبر " الحضارة نوع من المجتمعات الإنسانية"، وهي " أصغر وحدة في الدراسات التاريخية ويصل إليها المرء عندما يحاول أن يفهم تاريخ وطنه". كما أنّها شاملة لا يفهم الجزء إلاّ بالعودة إلى الكلّ"[2].

وقد جعل توينبي هو الآخر للحضارة مراحل تمرّ بها فشبّهها بالكائن الحيّ الّذي يعرف في حياته مراحل تكون آخرها مرحلة الموت كذلك الحضارة آخرها الانهيار والتحلل.وهذا ما ستعرّف عليه بشيء من التّفصيل فيما سيأتي من فصول.

ومنه نستخلص أنّ مدلول كلمة حضارة يختلف بين الفريقين؛ فإذا كانت الحضارة في نظر الفريق الأوّل تعني المظاهر الفكريّة فقط، فإنّها بحسب الفريق الثّاني تعني مجموعة المظاهر الفكريّة والماديّة في المجتمع. ونجد اختلافا آخر بين الفريقين يخصّ استعمال كلمة الحضارة، فالألمان يستعملون عادة كلمة ﴿**Kulter**﴾، و الفرنسيّون يفضّلون كلمة ﴿**civilisation**﴾[3].

وخلاصة للتّعريفات التّي قدّمناها لمفهوم الحضارة نقول: إنّ الحضارة هي ثمرة الجهود الّتي يبذلها الإنسان ليحقّق العيش الكريم، وهي الإبداع الّذي يصدر منه في جميع مجالات الحياة. والحضارة ليست خاصّة بمجتمع فقط بل تشمل جميع المجتمعات شرط أن تكون هذه الأخيرة تمتلك مقوّمات ومؤهّلات تحقّق بها الرّقيّ والازدهار والاستقرار.

1-صموئيل هنتنغتون:صدام الحضارات...إعادة صنع النظام العالمي،تر:طلعت الشايب ، ط2 ،1999م،ص :71 .

2-هدى بوفضة:دور الدّين في بناء الحضارة في فلسفة أرنولد توينبي- المسيحية نموذجا-،رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة،جامعة الإخوة منتوري،كلّية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية،قسم الفلسفة،2007م،2008م،ص:16.

3-ألبرت أشفستر:فلسفة الحضارة،ص:37.

الفصل الأوّل: الحضارة عند العلماء

-المبحث الأوّل: الحضارة في التّفكير الغربيّ

-المبحث الثّاني: الحضارة في التّفكير العربيّ

كثيرٌ هم المفكّرون والعلماء الّذين تناولوا موضوع الحضارة بالدّراسة والبحث ،نظرا لأهمّية وحيويّة هذا الموضوع الكبير، فقدّم الفلاسفة والمؤرّخون والعديد من الباحثين نظريّات وتفسيرات متنوّعة حول نشأة الحضارات ونموّها والمراحل الّتي تعرفها كلّ حضارة، فنتجت عن هذه الدّراسات والنّظريات رؤى مختلفة باختلاف باحثيها وأصحابها. ويمكن أن نقسّم هذه الرّؤى إلى رؤى غربية وأخرى عربيّة بحسب أصولها وانتماء أصحابها، وإذا ما قمنا بذلك فإنّنا سنعثر على نظريّات اشتهرت، ولا زال العالم يذكرها ويأخذ بها، وهذا ما سنتطّرق إليه في المباحث الآتية.

المبحث الأول: الحضارة في التّفكير الغربيّ

لقد شهدت السّاحة الأوربّية اهتماما كبيرا بالحضارة، فألّفت بشأنها كتب تعدّ ثروة كلّ باحث ودارس.ومن بين أبرز وأهمّ النّظريّات الّتي أسّسها العلماء نظريّتي الحضارة **لاشبنجلر وتوينبي**. وهو ما سندرسه بإيجاز فيما يلي:

1- *الحضارة عند اشبنجلر:*(1880م-1960م)

يعتبر **اشبنجلر** من أبرز علماء الغرب الّذين بحثوا في موضوع الحضارة وتعمّقوا فيه حتّى وصل بهم الأمر إلى تأسيس نظريّة جامعة ضمّنها كتابه " **تدهور الحضارة الغربية**" الّذي تحدّث فيه عن الحضارة، وتنبّأ **اشبنجلر** في كتابه هذا بمصير الحضارة الغربية.

*و الحضارة عند اشنبلجر هي كائن حيّ عضويّ يمرّ بمراحل حتميّة، فهو يرى أنّ التاريخ مكوّن من كائنات حيّة عضوية هي الحضارات، إذ تشبه كلّ حضارة الكائن الحيّ تمام التّشابه، فميلاد الحضارات ونموّها وازدهارها ثم أفولها، ما هي إلاّ عمليّة بيولوجيّة تشبه ما يحدث للكائنات الحيّة[1]. ومنه فإنّ تاريخ الحضارات شبيه بتاريخ الإنسان، وبذلك يكون التّاريخ العامّ ترجمة لحياة هذه الحضارات الّتي تعتبر تراكيب عضوية. ولمّا كانت هذه المراحل الّتي تمرّ بها أي حضارة مولد ونموّ وازدهار و انحلال هي نفسها الّتي تمر بها كلّ الحضارات، فإنّه بالإمكان التّنبّؤ بمستقبل أيّ حضارة، وعليه فقد تنبأ

1-عبد الرّحمن بدوي:اشبنجلر،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،(د.ط)،1941م،ص:98.

اشبنجلر بزوال الحضارة الغربية، حتى أنّه حدّد عمرها من(900و2400م)[1]. وهذا ما توصّل إليه بعدما درس الحضارة الغربية. وهذه الأخيرة في نظر **اشبنجلر** بدأت إقطاعية دينية ثمّ مرّت بعصر النهضة وشهدت الازدهار في الميادين كلّها . ومع بدايات العصر الحديث ازدهرت المدارس الفلسفيّة وتوالت الكشوفات العلميّة، ولكن منذ القرن التّاسع عشر سارت الحضارة نحو الانهيار التّام بعدما بلغت قدرا كبيرا من التّطوّر والتّوسّع،وبعد أن استنفذت كلّ ما لها من إمكانيات وكلّ ما تزخر به من طاقات .

ويعزي **اشبنجلر** جوهر الحضارة إلى الجانب الرّوحي فيقول :" إنّ حيّوية الإنسان الحضاري تتّجه في مجراها إلى الباطن، بينما تتّجه حيويّة الإنسان المدنيّ إلى الخارج"[2] .إذن يركّز **اشبنجلر** على جانب الأخلاق وليس على جانب المادّة، و هو يرى " أنّ للحضارة دستورا أخلاقيّا يتمثّل في العقيدة وقوّة النّفس وتلازمه بساطة الظّواهر، وهذا الدّستور الحضاريّ لا يعتمد أبدا بل إنّما يعتمد الوجدان، هذا الوجدان المتمثّل في الشّعور لا بالحسّ،و أنّ العقلانية في شتّى مذاهبها هي فلسفة مدنيّة لا حضارة، لذلك عندما تدخل حضارة الطّور العقلانيّ من تطّورها تبلغ خريف عمرها،وتشيخ وتهوى إلى درك المدنيّة ثمّ تتابع انحدارها إلى الانحلال[3]. فالحضارة هي ظاهرة روحيّة عند النّاس وليست ماديّة.

والحضارة عنده تنشأ نتيجة نضال بين قوى داخل المجتمع،ويقول في ذلك :" الحضارة عبارة عن روح زاخرة بالإمكانيّات تأتي إلى الوجود في بيئة خارجية بها الكثير من القوى في حالة فوضى، فتشرع في التّأكيد على صورها ضدّ هذا الخليط، ثم تفرض صورها عليه وهنا يصبح تاريخ هذه الحضارة هو تاريخ هذا النّضال بين تلك القوى، وفي أثناء ذلك النّضال تتحقّق العديد من الأوضاع"[4].

وهذه الرّوح الّتي تحدّث عنها **اشبنجلر** لا تبقى على حالها و إنّما تعرف التّغيير،" وحين تصبح هذه الرّوح غير قادرة على الاستمرار في بسط سطوتها على الواقع، بسبب الضّعف الّذي يدبّ فيها تحت

1-المرجع نفسه، ص:98.

2-أوسوالد اشبنغلر:تدهور الحضارة الغربية،ج1 ،تر:أحمد الشيباني،دار مكتبة الحياة،بيروت ،لبنان،(د.ط)،(د.ت)،ص:97.

3-المرجع نفسه،ص:14.

4-عبد الرّحمن بدوي:اشبنجلر،ص:99.

تأثير أحد العاملين، إمّا بتأثير روح جديدة أو عندما تستنفذ الرّوح كلّ طاقتها بعد أن تكون قد حقّقت جميع إمكاناتها الباطنية على صورة (لغات ومذاهب دينيّة وفنون وعلوم وتشريعات سياسية...)، وبلغت ذروة قوّتها وبلغت أقصى إمكاناتها عندئذ تنحسر قوّتها وتنتقل من كونها حضارة إلى حالة أخرى هي المدنيّة فتدخل في مرحلة الانحلال و الفناء، مع ذلك قد تستمرّ بالبقاء لفترة من الزّمن قد تطول أو تقصر، ولكن الفناء الحتمي مصيرها"[1].

ويستخدم **اشبنجلر** المدنيّة للتّعبير عن الحالة الّتي تتحوّل إليها الحضارة في مرحلتها الأخيرة، فبعد أن تكون الحضارة متقدّمة وقويّة تصل في وقت من الأوقات إلى الانحطاط عندئذ لا تسمّى حضارة وإنّما تسمّى مدنيّة.

وإضافة إلى هذه الأمور المتعلّقة بالحضارة يعتبر **اشبنجلر** أنّ لكلّ حضارة عناصر خاصّة بها وعناصر غريبة عنها، وأنّ هذه العناصر من خاصّة وغريبة تحدّدها النّفس الأوّلية لكلّ حضارة، لذلك فإنّه يؤمن بأنّه من المستحيل على فرد أو أفراد ينتمون إلى إحدى الحضارات، أن يفهموا حضارة غير حضارتهم فهما كاملا ودقيقا وذلك بسبب العناصر الغريبة عنهم[2].

فالحضارة من هنا مختلفة من أمّة إلى أخرى نظرا للعناصر الّتي تكوّنها وتميّزها، ولكن لا نجزم بهذا القول وإنّما هناك أمور مشتركة بين كلّ الحضارات، ولكن الاختلاف هو في توظيف هذه الأمور واستغلالها.

1-المرجع نفسه، ص:99.

2-اسوالد اشبنغلر:تدهور الحضارة العربية،ص:14.

ب- الحضارة عند توينبي: (1889م-1975م)

من العلماء الّذين أصّلوا لموضوع الحضارة وبنوا نظريّة فيه قائمة على أسس ومبادئ **"توينبي"**. فالحضارة في نظره حسب ما ذكرنا سابقا " أصغر وحدة في الدّراسة التاريخية"[1]، وهي تخضع لقوانين بيولوجية حتمية بل لقوانين الله، فالإيمان من عوامل قوّة الحضارة وبقائها وإحياؤها إحياء لها[1].

وكما أشرنا سابقا **فتوينبي** فرّق بين مفاهيم أربعة متداخلة ومترابطة بينها وهي: المجتمع، المجتمعات ،الحضارة و الحضارات، أمّا المجتمع فهو" الشّبكة الكاملة للعلاقات بين الأفراد"[2]، فالمجتمع إذا لا يتكوّن إلاّ بوجود أفراد مترابطين يعيشون فيه. وبالنّسبة للمجتمعات فإنّها المظاهر التّاريخيّة الواقعيّة العينيّة لفكرة المجتمع المجرّدة. فهو يقصد بذلك العلاقات الخاصّة في المجتمع. ويميّز توينبي بين مجتمعات بدائية وأخرى متحضّرة.

والحضارة تمثّل في نظره "نوعا خاصّا لثقافة سادت في مرحلة معيّنة من التّاريخ". وفيما يخصّ مصطلح الحضارات فإنّه يقول عنه:" إنّ كلّ حضارة تحمل شبكة علاقات مجتمع ما ومن المستحيل فعليّا دراسة حضارة منفصلة عن مجتمعها"[2] ومعنى ما ذكره **توينبي** في تعريفاته هذه هو أنّ الحضارة تنشأ داخل مجتمع تربط بين أفراده علاقات متنوّعة وتجمعهم ثقافات مشتركة.

ويرى توينبي أنّ للحضارة مراحل تمرّ بها: المولد، النموّ، الانهيار والتّحلّل. فالحضارة تولد عند شعب ما لا بفضل تميّز جنس أو تفوّق عنصريّ، ولا عن ظروف ملائمة، بل عن تحدّيات يواجهها شعب له نوع من الموهبة والقدرة على الابتكار، فإذا نجح في التحدّي ولدت الحضارة .أمّا نموّها فليس نوعا من التوسع العسكريّ والسيّطرة على الشّعوب، لأنّ هذا قد يكون في المرحلة المبكرّة من التّحلّل ولا هو نوع من التّقدّم التكنولوجيّ، بل هو قليل من النّشاط العملي والاهتمام بالجوانب المعنويّة والرّوحيّة باللّغة والعلوم والآداب والفنون العمليّة، فتتشكّل بذلك ذاتية المجتمع ويبدأ في تقرير مصيره،

1-محمد عبد الهدى أبو ريدة:الإسلام و الحضارة، ج3،تح:فيصل بدير عون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،ط3، 2011م، ص:224.
2-هدي برفضه:دور الدّين في بناء فلسفة أرنولد توينبي-المسيحية نموذجا -،ص: 15-16.

وفي فترة النّموّ يرى توينبي أنّه لا بدّ أن تكون في كلّ حضارة أقليّة خلاّقة فكريّا وروحيّا تقود الجماهير، وعلى الجماهير أن تعمل على اتّباعها ومحاكاتها. أمّا تدهور الحضارة فهو لاينشأ بالضّرورة عن غزو عسكري أجنبي ولا عن حتمية من نوع ما، بل عن فساد المجتمع المتحضّر في داخله خصوصا عندما تفقد القوى الخلاّقة والقيادة قدرتها على مواجهة التّحدي.فتعمد إلى القهر و يحدث تصدّع الوحدة الاجتماعية،وهذه هي بداية مرحلة التّحلّل في الحضارة.

ويعتبر توينبي تحلّل الحضارة ليس تفكّكا لها وإنّما يمكن إصلاح الصّدع والتئام الوحدة الاجتماعية فتوقّف الاضمحلال وتجمد الحضارة قرونا[1].

فالحضارة عنده إذا لا تموت بل يبقى منها جوهر أو بذرة ستنشأ عنها حضارة جديدة أفضل.

وإذا تناولنا مراحل الحضارة عند توينبي نجده يحدّد عوامل تساعد على نشوء الحضارات وارتقائها، وهي كالآتي :- العرق La race

-البيئة Le milieu

- التّحدّي و الاستجابة Défi et répense

أ- **العرق أو الجنس:**

يقول توينبي:" نستعمل كلمة عرق لتمييز نوع مستقلّ بذاته عن باقي الأنواع الأخرى"[2]. أي الصّفات المميّزة لنوع من البشر كلون البشرة.

و لم يبالغ **توينبي** في الدّور الّذي يقوم به العرق، وقد أشاد بتقدّم المسلمين على المسيحيّين في إلغائهم لكلّ المعايير العرقية. يقول: "لقد أزال العرب وغيرهم من المسلمين كلّ الأحكام المسبقة المتعلّقة بلون البشرة في تعاملهم مع الأجناس الأخرى"[3].و من هنا نقول أنّ الحضارة لا تستند لجنس معيّن و إنّما هي حصيلة تعاون أجناس ساهمت في بنائها. و رأي توينبي يتوافق مع قوله صلّى الله عليه وسلّم:" **لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**"

1-محمد عبد الهادي أبو ريدة:الإسلام و الحضارة،ج3،تح:فيصل بدير عون، ص: 226-227.
2-هدى بو فضة:دور الدّين في بناء فلسفة أرنولد توينبي-المسيحية نموذجا-،ص:21 نقلا عن: Toynbee arnold.L'histoire .p:87
3-المرجع نفسه:ص:22.

ب- البيئـــة:

إنّ البيئة أوّلا بيئة جغرافية واجتماعية، فالأولى مجموعة الصّفات الطّبيعيّة الّتي تميّز وسطا معيّنا، وهي الّتي تؤثّر على حياة الأفراد الّذين يمثّلون هم بذاتهم المجتمع[1]. ولا يعتبر **توينبي** البيئة العامل الوحيد الواجب توفّره لتحقيق الحضارة، ولكنّها ضرورية. ويعطي أمثلة تدلّ على أثر عامل البيئة في قيام الحضارة؛ فتحدّث عن الحضارة المصريّة وأثبت ذلك عندما بيّن بيئة مصر يقول:" إنّ اليونان الّذين زاروا مصر الفرعونية، أثناء قيام الحضارة الهلينية من التّاريخ اليوناني، انبهروا بدرجة تطّور الحضارة المصريّة فظلّت في أعينهم مميّزة".

ويضيف قائلا:" يرجع **(هيرودوت)** مميّزات الثّقافة المصريّة إلى العوامل البيئية الّتي نشأت بها هذه الثّقافة: المناخ الّذي يعيش فيه المصريّون غير مناخنا،كذلك طبيعة نهرهم فريدة، وهذا ما يفسّر كيف وجد المصريّون لأنفسهم طرق عيش ومميّزات حضارية انفردوا بها على باقي الإنسانية"[2].

فالبيئة عامل مهّم في قيام الحضارة، وهي تشمل الصّفات الطّبيعيّة الّتي تميّز الأفراد، كالعوامل الجغرافية ذات التّأثير الكبير على الحضارة مثلما ذهب إليه" **وول ديورانت** ".

ج- التّحدّي والاستجابة:

لو طالعنا تاريخ الحضارات بل وتاريخ الشّعوب أيضا سنلاحظ أنّ الإنسان كلّما واجهته صعوبات بذل جهدا مضاعفا وقام بعمل لم يسبق له وأن قام به من أجل تجاوز تلك الصّعوبات، وهذا ما يمثّل التّحدي و الاستجابة.

وقد بدأ **توينبي** بعرض فكرته في التّحدي والاستجابة بالاعتماد على الكتاب المقدّس الّذي يحوي أولى قصص التّحدي مستندا على نصوص من سفر التكوين تبيّن التّحدي[3].

ويعدّ توينبي التحدّيات عاملا جوهريّا في نشوء الحضارات منطلقا من عبارة:" كلّما عظم التّحدي اشتدّ

1-هدي بوفضة:دور الدّين في بناء الحضارة في فلسفة أرنولد توينبي-المسيحية نموذجا-،ص:25.
2-المرجع نفسه،ص:25 .نقلا عن Toynbee arnold. l'histoire.p:9
3-المرجع نفسه،ص:28.

الحافز "[1].

وتقوم نظرية التّحدّي على مجموعة من الأفكار الرّئيسية:

1- فكرة الأبوّة والبنوّة:

تعني هذه الفكرة أن بعض الحضارات وليدة حضارات أخرى سابقة عليها. وبناء على ذلك يرى توينبي أنّ الحضارة الغربية الحديثة وليدة الحضارة الهلينيّة(اليونانية و الرّومانية)، ومع ذلك فهذه الفكرة ليست عامّة تطبّق على كلّ الحضارات، فهناك بعض الحضارات لا تنتمي بالبنوّة إلى حضارات أخرى، كما أنّه هناك بعض الحضارات لا تجد من تأخذها كأب. ويضرب مثالا بالحضارة المصريّة القديمة، الّتي لم يكن لها أبناء ، فليس للحضارة المصريّة سلف تنسب إليه، كما أنّ ليس لها حليفة[2].

وهذا الرّأي يثبت التّفاعل الموجود بين الحضارات، ولكن يبقى لكل حضارة خصوصية وسمات خاصّة تميّزها عن باقي الحضارات.

2-المدنيّة المقابلة للبدائية :

أي أنّه لا توجد مجتمعات متحضّرة فقط، بل هناك مجتمعات بدائية غير متحضّرة، وتمكّن **توينبي** من معرفة هذا بعدما درس أكثر من عشرين حضارة، واعتبر أنّ المجتمعات البدائية أكثر عددا من المجتمعات المدنيّة، وأقدم وجودا منها.

3-فكرة أوقات الاضطراب:

يقصد توينبي بهذه الفكرة الفترة الفوضويّة الّتي تأتي بين تآكل أحد المجتمعات وقيام مجتمع آخر وفق مفهوم الأبوّة والبنوّة، وهذه الفكرة تعبّر عن المرحلة الفاصلة ما بين اندثار حضارة ما تمثّل الأب، وبين ولادة حضارة أخرى هي الابن الشّرعيّ للحضارة السّابقة عليها.

4-فكرة البروليتاريا الدّاخلية:

ويقصد توينبي بالبروليتاريا الدّاخلية عامّة الشّعب، الّذي يشكّل الطّبقة المحرومة من حقوقها الشّرعيّة، والّذين لا يشعرون بأيّ انتماء إلى مجتمعهم، أي الطّبقة الدّنيا من المجتمع في المدن و الأرياف و الّتي

1-هدّى بوفضة:دور الدّين في فلسفة أرنولد توينبي-المسيحية نموذجا -،ص:36.

2-المرجع نفسه،ص: 37 نقلا عن:أرنولد توينبي:مختصر دراسة للتّاريخ، ج4، ص:225.

يقوم أفرادها بأدنى الأعمال البدنيّة وأكثرها تطلّبا الجهد والمعاناة مع قلّة الأجر[1].

5-فكرة البروليتاريا الخارجية:

تبرز هي الأخرى للوجود مع بدء انهيار الحضارة، وذلك عندما تحدث انشقاق ما بين البروليتاريا الدّاخلية والأقليّة المسيطرة في حضارات آلت إلى الزّوال.

والفرق بين البروليتاريتين الدّاخلية والخارجيّة هو : الأولى تنبع من داخل الشّعب ،والثّانية تنشأ من خارجه[2].

6-فكرة الدّولة العالمية والكنيسة العالمية:

يعتبر **توينبي** أنّ الدّولة العالمية ظاهرة أساسية من الظّواهر الّتي تنشأ عقب انهيار حضارة ما، ومهمّتها حينذاك تحقيق الوحدة السّياسيّة لكيان الحضارة الاجتماعية بوضع حدّ للفوضى والاضطرابات.

لقد لاحظ **توينبي** من خلال دراسته لمراحل الانهيار والتّحلّل الّتي تمرّ بها الحضارات، أنّه تنشأ عنها بالضّرورة دولة عالمية[3].

7-فكرة الدّولة العالمية و الكنيسة العالمية:

يضرب توينبي أمثلة لتلك الحضارات كالحضارة السّومرية والحضارة الحبشية والحضارة البابلية و الحضارة المصريّة. ويحلّل توينبي هذه الحضارة الأخيرة فيرى (أنّ الحضارة المصريّة أمّ الحضارات الّتي عاشت ردحا من الزّمن أطول من عمر أيّ حضارة أخرى عرفها التّاريخ، فقد امتدّت من القرن الرّابع قبل الميلاد وحتى القرن الخامس الميلاد، وعلى هذا فإنّ مساحتها تبلغ ثلاثة أمثال مساحة الحضارة الغربية حتّى يومنا هذا)[4].

1-زياد عبد الكريم النحم:توينبي و نظريته في التّحدي و الاستجابة(الحضارة الإسلامية نموذجا)، كتاب مصوّر،(د.ت) ،(د.ط)،ص:45-46

2--المرجع نفسه،ص:46.

3-المرجع نفسه،ص:48.

4-غنيمي رأفت الشيخ:فلسفة التاريخ،دار الثّقافة للنشر و التوزيع،القاهرة،(د.ط)،(د.ت)،ص:189.

هذه هي العوامل الأساسية لنشوء الحضارات حسب توينبي. ولكنّها ليست شاملة لكلّ الحضارات، لأننا لو طبّقنا ها على حضارة الإسلام نلاحظ مثلا البيئة صحراوية ،يعتمد أفرادها على طرق بسيطة للعيش خاصة الرّعي والتّجارة، أمّا العرق، فبُعث الإسلام وسط قوم عرب ، ورغم ذلك إلاّ أنّ الله ارتضى هذا المكان وهؤلاء القوم ليشعّ هناك نور الرّسالة فنشأت الحضارة الإسلامية. وكما سبق وأن ذكرنا الحضارة في نظر **توينبي** تمرّ بمراحل النّموّ، الارتقاء ثم الانهيار وأخيرا التّحلّل.

بعد أن بيّنا رؤية **توينبي**، لنشوء الحضارة وارتقائها، والعوامل الّتي تحقّق ذلك نأتي إلى ذكر انهيار الحضارات. **فتوينبي** يفرّق بين انهيار الحضارة وتحلّلها، ويقصد بالانهيار السّقوط الّذي لا يكون نهائيا وإنّما يمكن بعده عودة الحضارة إلى قمّتها، وهو بمعنى أدقّ " فقدان السيّطرة"[1].يقول **توينبي**:" إنْ كنّا قد رأينا أنّ ارتقاء الحضارة كان بفضل قوّة مبدعة تتحكّم وحدها في تقرير المصير، يبقى لنا أن نرى إن كنّا نستطيع تفسير انهيار الحضارات بفقدان هذه الطّاقة"[2] .

وقد أحصى **توينبي** واحدا وعشرين حضارة اندثرت كلّها ولم يبق منها سوى خمس حضارات هي: الحضارة المسيحيّة الغربيّة ،الحضارة المسيحية الشّرقيّة، الحضارة الإسلاميّة، الحضارة الهنديّة وحضارة الشّرق الأقصى.

ويرجع **توينبي** انهيار الحضارات إلى أسباب ثلاثة: أوّلها تصوّر الأقلّية المبدعة الّتي كانت في وقت هي سبب رقيّ الحضارة، والسّبب الثّاني يتمثّل في ردّ الفعل العنيف ينتج عنه قيام صراع بين النّخبة والطّبقة البسيطة في المجتمع، وثالث سبب هو " فقدان التّماسك الاجتماعي،سواء بسبب انشقاق الخارجين أو سخط المحكومين"[3].ويستعمل **توينبي** كلمة إغريقية يصف بها تدهور الحضارات وسقوطها هي(hybris) وتترجم ب: الزّهور، الغرور، التّكبّر والأنانية. إنّ hybris هي السّبب في سقوط الحضارات[4].

1-هدي بوفضة:دور الدّين في بناء الحضارة في فلسفة أرنولد توينبي-المسيحية نموذجا-،ص:42 نقلا عن:أرنولد توينبي:الحضارة في الميزان،ص:20.
2-المرجع نفسه،ن.ص،نقلا عن: Toyunbee arnold.l histoire.p: 135
3-هدي بوفضة:دور الدّين في بناء الحضارة في فلسفة أرنولد توينبي، المسيحية نموذجا،ص:43.
4-كولن ويلسون:سقوط الحضارة،تر:أنيس زكي حسن،دار الآداب ،بيروت،لبنان،ط3، 1982م،ص:151.

والحضارة في نظر توينبي لا تنهار بسبب الغزو الخارجيّ أو الاستعمار وإنّما لأسباب تحدثها بنفسها،أمّا عن تحلّل الحضارة فيقصد به توينبي الانهيار الّذي لا يتبعه قيام، يقول :" بمجرّد ما تنهار حضارة ما ستنحلّ بالضرورة في مرحلة التّحلّل"[1]. والتّحلّل ينتج عنه انقسام اجتماعي إلى كسور ثلاث : أقلّية مسيطرة، بروليتاريا داخلية، بروليتاريا خارجية.

هذا عن مراحل الحضارة عند **توينبي** الّذي يؤكد على ضرورة وجود الدّين حتّى تقوم الحضارة أو تستمرّ، فبفضله تظهر حضارة جديدة تتولّد عن القديمة وتخلُفُها، فالدّين هو السّبيل الوحيد لإنقاذ الحضارات من خطر الانهيار والانحلال، والسّمة الدّينية أهمّ صفة يمكن أن توصف بها الحضارة، لذلك نجد **توينبي** يسمّي الحضارة باسم الدّين الّذي نشأت في ظلاله أو كانت إحدى ثمراته، لأنّ الدّين برأيه شكل الاستجابة النّاجحة للرّوح على تحدّ خارجيّ، ينتقل بفضلها مجتمع ما من حركة ركود إلى حالة حركة.

واعتبر **توينبي** الفئة المبدعة هي القادرة على عمليّة الخلق والإبداع وصنع الحضارات ،لذا فإن الظّروف الصّعبة لا السّهلة هي الّتي تستثير في الأمم قيام الحضارات، وأنّ عامّة النّاس فما عليهم إلا اقتفاء أثر المبدعين ومحاكاتهم. ومن خلال نظرية **توينبي** يتبيّن أنّ التّحدّي هو نقطة البدء في عمليّة التّحول الحضاري، فعندما ينتقل التّحدي الخارجيّ إلى انفعال داخلي، يحدث إحساس بالمشكلة فتنتقل بذلك من مجال المادّة إلى مجال الرّوح الّتي تعمل بدورها على رفض ما هو قائم وتذليله وفق متطلّباتها وتطلّعاتها الذّاتيّة.وبيّنا أنّ **توينبي** اعتبر الفئة المبدعة هي أساس نشأة الحضارات، كذلك تعدّ مسبّبة الانهيار إذا فقدت هذه الفئة مقوّمات الإبداع وتتحوّل إلى فئة مستبدّة عاجزة عن الخلق والابتكار[2]. فالحضارة في نظر توينبي انطلاقا من كلّ هذا تسير بحركة إيقاع، فيه ارتفاع وانخفاض بحسب العقبات والظّروف والقانون الّذي يحكم سير الحضارة (قانون التّحدي والاستجابة) بمعنى أنّ الشّعب أو الأمّة

1-هدى بوفضة:دور الدّين في بناء الحضارة في فلسفة أرنولد توينبي،المسيحية نموذجا،ص:46 نقلا عن Toynbee arnold .l'histoire.p : 2

2-زياد عبد الكريم النجم:توينبي و نظريته في التّحدي و الاستجابة(الحضارة الإسلامية نموذجا)،ص:3.

جملة لما كان فاقد الكسب بالكلية، وعلى قدر عمله وشرفه بين أعمال وحاجة النّاس إليه يكون قدر قيمته، وعلى نسبة ذلك نموّ كسبه أو نقصانه"[1].

فابن خلدون إذًا يعتبر العمل أساس الإنتاج الّذي بدوره أساس التّحضّر، والعمل الّذي يقصده بوجه خاصّ هو الزّراعة وما يرتبط بالأرض من صناعات، وإذا كان العمل واستثمار الأرض يتطلّب استقرار الأفراد فإنّ الاستقرار أوّل أسس الحضارة.

ولموقع الأرض وخصوبتها ومناخها ونوع الموادّ الغذائيّة الّتي تنتجها تأثير كبير على المجتمع الإنسانيّ، فالطّبيعة تحدّد النّشاط الإنسانيّ والصّفات الجسمانيّة والنّفسيّة للإنسان ليس هذا فحسب بل وتحدّد نوع حياته الثّقافية.وعلى هذا الأساس استنتج **ابن خلدون** أنّ الحضارة لا توجد إلاّ في مناطق معيّنة[2].

ب- **مزايا الحكومة :**

يعتبر ابن خلدون الحكومة القويّة أساس آخر من أسس التّحضّر ذلك أنّ الإنسان المستقرّ يحتاج إلى تنظيم وحماية حتّى ينتج أكثر، كما أنّه يحتاج إلى حكومة عادلة تحقّق الأمن والعدالة، وتستطيع الدّفاع عن مصالحه،و إلى حكومة واعية بأهمّيّة التّجارة الخارجيّة تشجّعها وتحميها.

فإذا كانت الحكومة بهذه المواصفات استقرّ المواطنون وتماسكوا وبذلك ينصرفون إلى الإنتاج، فتصبح الدّولة غنيّة أي متحضّرة، انقلبت من طور البداوة إلى طور التّحضّر.

ويذهب **ابن خلدون** إلى أنّ الدّولة لا توجد إلاّ في مرحلة معيّنة من تطوّر العمران، فالعمران البدويّ أو ما قبله ليس به نظام دولة[3].

ج- كثرة السّكان:

يرى ابن خلدون أنّه إذا كانت الحكومة تدعّم قيام الحضارة فإنّها تخلق كثرة السّكان،لأنّ اجتماع عدد من السّكان وتنسيق جهودهم وتوزيع العمل بينهم يجعل ثمرة جهودهم تفوق حاجاتهم، فيستهلكون جزءا منها، ويستثمرون الباقي في التّرف ومظاهر التّحضّر. والتّرف يزيد الدّولة قوّة، وذلك لأنّه إذا

1- ابن خلدون:المقدّمة، ص: 394.
2- رأفت غنيمي الشّيخ:فلسفة التاريخ،ص:57.
3-المرجع نفسه،ن.ص.

حصل الملك والتّرف كثُر التنّاسل فتقوى العصبيّة[1].

إذن إذا أرادت دولة أن تتحضّر لابدّ من توفّر الموقع المعيّن والمناخ الملائم والأرض الخصبة الصّالحة، وأهمّ عامل أفراد يعملون وينتجون، وبقيادة حكيمة تسيّر بعدل وتوفّر الأمن.

3- طور التّدهور:

ويقصد به ابن خلدون وصول الدّول والحضارات إلى الهرم، وهو الجيل الّذي تسقط فيه الدّولة وتفنى، فقد انقطعت أسبابه بالجيل الأوّل، وفقد حلاوة العزّة والعصبيّة، وبلغ التّرف غايته فأصبح الأفراد عِيالا على الدّولة، يحتاجون إلى مدافعة الدّولة عنهم، بعد أن كانوا هم المدافعين عنها، وبعد أن كان عزّها مقرونا بعزّهم[2].

ويتحقّق التّدهور عندما تتوفّر العوامل الآتية:

ا- العصبيّة والموالي:

فإذا ضعفت العصبيّة أي ابتعد الأفراد والحكّام عن الدّين وانغمسوا في ملذّات الدّنيا ضعفت قوّتهم فيضطرّون إلى الاستعانة بغيرهم من أهل النّجدة، فيستكثرون بـــ الموالي الّذين يغنّون بعض الغناء[3].

ب- التّرف:

بعد أن كان التّرف عامل من عوامل قوّة الدّولة ومهمّا في تحضّرها قد يتسبّب في تدهورها إذا بالغ الأفراد فيه فيعكفون على الشّهوات وتثار عندهم من مذمومات وبذلك يذهب عن أهل الحضور الحشمة ويهذعون في أقوال الفحشاء[4].

إذن كلّ حضارة تمرّ بمراحل ثلاث أوّلها البداوة فتعبرها إلى مرحلة التّحضر إلى أن تصل إلى مرحلة تنهار فيها ،وذلك إذا ضعف دينها وانكسرت شوكتها فاستعانت بالخارج، وانغمست في ملذّات الدّنيا. والانهيار هذا ليس نهائيّا وإنّما يمكن أن تتجدّد الحضارة من جديد.وعن هذه الأطوار

1-المرجع نفسه،ص:58.
2-مصطفى الشّكعة:الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته،ص:73.
3-غنيمي رأفت الشّيخ،فلسفة التاريخ،ص:61
4-المرجع نفسه،ن.ص.

الثّلاثة يقول **ابن خلدون**: (وهذه الأجيال الثّلاثة عمرها مائة وعشرون سنة،ولا تعدو الدّول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده إلّا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب،فيكون الهرم حاصلا مستوليا، والطّالب لم يحضرها ولو قد جاء الطّالب لما وجد مدافعا. ويستشهد بالآية الكريمة:﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾*[1].

وإنّ ابن خلدون قد توصّل إلى هذا التّحديد في عمر الحضارات مستندا إلى ما شاهده في عصره وما قبله بقليل،مثل دول ملوك الطّوائف في الأندلس ،والمرابطين والموحّدين والمرينيّين في المغرب.ولكن هذا الأمر ينطبق على الدّويلات وليس على الدّول،لأنّ الكثير من الدّول الكبرى خالفت أعمارها القاعدة الّتي سطّرها **ابن خلدون**؛فالدّولة العبّاسيّة مثلا عاشت أكثر من خمسة قرون من الزّمان في العراق.

فالحضارة حسب **ابن خلدون** حلقة دائرية أي إذا تعبت حضارة وانهارت سلّمت مشعلها إلى حضارة أخرى حتّ تتابع ما بدأته وتطوّره، وبذلك فإنّها لا تموت نهائيّا و إنّما تتجدّد، وأساس الحضارة عنده هو العصبيّة،و لا ترقى الدّول إلا بوجود الصّنائع و العلم.

*سورة الأعراف:الآية:34.

1-ابن خلدون:المقدّمة،ص:183.

ب-الحضارة عند مالك بن نبي:

من العلماء المسلمين الّذين اشتهرت نظريّتهم في الحضارة، وكانت محلّ دراسة واهتمام الكثيرين **مالك بن نبي**، فقد أسّس نظريّته الحضاريّة الّتي تقوم على جانب الدّين كعامل أساسيّ لقيام كلّ حضارة.

*لقد عرّف مالك بن نبي الحضارة بقوله:" إنّها جملة من العوامل المعنويّة والماديّة الّتي تتيح لمجتمع ما أن يوفّر لكلّ عضو فيه جميع الضّمانات الاجتماعية اللاّزمة لتطوّره"[1] .فالحضارة مزيج بين ما هو مادّي وما هو معنوي- العوامل الأخلاقية -،ولا يمكن لحضارة أن تقوم إلاّ إذا توفّرت عناصر ثلاثة لا غنى عنها، وهي كالآتي:

عناصر الحضارة:

يتطلّب قيام أيّ حضارة توفّر ثلاثة عناصر متآلفة مع بعضها البعض وهي: **الإنسان، التّراب، والوقت.**

1- الإنسان:

اعتبر **مالك بن نبيّ** الإنسان الحجر الأساس في عمليّة البناء الحضاريّ، فالمجتمعات الحيوانيّة لا تنتج حضارة،ولقد كرّم الله الإنسان وفضّله على سائر الكائنات الحيّة، وكلّفه بالأمانة العظمى ،يقول تعالى:﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾* ،والإنسان خليفة الله في الأرض وقد أناط الله به عمارة الأرض ﴿**إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾* . فالإنسان بفضل عقله ووعيه وإرادته تمكّن من إنشاء حضارات.

عبر الأزمنة والدّهور، فصنع وابتكار[2].

والإنسان هو العنصر الوحيد بين العناصر الثّلاثة الّذي بإمكانه التّغيير والبناء، يقول **ابن نبي**:" فإذا تحرّك الإنسان تحرّك المجتمع والتّاريخ وإذا سكن سكن المجتمع والتّاريخ"[3].

1-ابن خلدون:المقدّمة، ص:376.
2-أحمد بنّاسي:المدخل إلى فكر مالك بن نبي، الجزائر،(د.ط)، 2006م، ص:49.
*سورة المؤمنون.الآيتين:[12-14] .
*سورة الأنبياء:الآية:105.
3-أحمد بنّاسي:المدخل إلى فكر مالك بن نبيّ،ص:42.

وهو أساس بناء الحضارة وصلته بها أو مكانه منها في ثلاث؛ فالإنسان إمّا أن يكون قبل الحضارة، وإمّا أن يكون في نعيم الحضارة،وإمّا أن يكون قد خرج من الحضارة. وهذه المراحل الثّلاث تختلف تمام الاختلاف فالإنسان المتحضّر يختلف عن الإنسان غير المتحضّر، والإنسان الخارج عن الحضارة يحتوي على بعض الرّواسب ويكون أكثر مصدر للمصاعب في المجتمع من ذلك الّذي لم يدخل بعد إلى الحضارة[1].

2- التّراب:

التّراب عامل أساسي من عوامل الحضارة، وهو عند **ابن نبيّ** الأرض و ما يوجد على سطحها و ما تخزنه في جوفها. و الأرض لا تقاس قيمتها بشساعتها أو ضيقها، وإنّما تقاس بقيمة أهلها الاجتماعية، فحينما تكون قيمة الأمّة مرتفعة، وحضارتها متقدّمة، يكون التّراب غالي الثمن، وحينما تكون الأمّة متخلّفة يكون التّراب على قدرها من الانحطاط[2].

3- الزّمن (الوقت):

إنّ الزّمن فضاء واسع استوعب واستغرق سائر الشّعوب و الأمم، فهو مرافق للإنسان منذ أن خلقه الله على وجه الأرض، فهو يفيض عنّا بالسّاعات والأيّام و الشّهور، فلا يوجد شعب يمارس نشاطه خارج الزّمن، وإن كان مجال كلّ شعب يختلف عن مجال شعب آخر ضمن هذا الفضاء الواسع[3] . وفي نظر **ابن نبيّ** قد يكون الزّمن ثروة عند شعب أو عَدَمًا عند شعب آخر ذلك بحسب استغلاله والاستفادة منه.

وعبّر عنه **ابن نبيّ** بالنّهر الّذي يعبُر العالم منذ الأزل والّذي قد ننساه ونغفله[4]. فعلى الأفراد إدراك قيمة الوقت لأنّه لا يعود إن ضاع."يمكننا أن ندرك قيمة الوقت مباشرة في عودة الحياة الاجتماعيّة والاقتصادية لشعب لم يبق لديه من الوسائل إثر الحرب العالمية الثّانية إلاّ العناصر الثّلاثة: الإنسان والتّراب و الزّمن"[5] .فبتحديد فكرة الزّمن يتحدّد معنى التّأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة

1-المرجع نفسه،ص:29.
2-مالك بن نبي:شروط النّهضة ،تر:عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دارالفكر ،دمشق،سوريا، 1409ه،1986م،ص:138.
3-أحمد بنّاسي:مدخل إلى فكر مالك بن نبي:44.
4-مالك بن نبي:شروط النهضة،ص:139.
5-المصدر نفسه،ص:148.

الحاضرة الّذي ينقص المسلمين[1] .فالحضارة إذن تستلزم الإنسان وإمكانياته الذّهنية والجسمية+ تراب بما فوقه وتحته + الزّمن . الكّل يتطلّب فكرة دينية تعد المحرّك الأساسيّ لحركة التّاريخ والإبداع الحضاري[2].

وهذه الفكرة هي الّتي تؤلّف العناصر الثّلاثة وتتدخّل إمّا بطريقة مباشرة، وإمّا بواسطة بديلاتها اللاّدينيّة نفسها في التركيبة المتآلفة لحضارة ما وتشكيل إرادتها[3] .

فالأخلاق عامل ضروري لا حضارة بدونه.

ويقدّم **مالك بن نبي** نماذج يثبت من خلالها تواجد العناصر الثّلاثة في كّل إبداع إنسانيّ، من أمثلتها (المصباح)، ففيه مثلا يوجد الإنسان خلف العملية العلميّة والصّناعيّة الّتي يعتبر الإنسان ثمرتها ، والتّراب في عناصره موصل عازل، وهو يتدّخل بعنصره الأوّل في نشأة الإنسان العضويّة، والوقت يبرز في جميع العمليّات البيولوجية، و هو ينتج المصباح بمساعدة العنصرين الأوّلين: الإنسان والتّراب.

ومنه فإنّ: الإنسان+ التّراب+ الزّمن رصيد كلّ حضارة وراد وقت العسرة[4]. ويمكن أن نضيف في المعادلة:الإنسان + تراب+الزّمن = حضارة قويّة.

الفكرة الدّينية

والحضارة لا تبقى على حال واحد وإنّما تتغيّر وتنتقل من مرحلة إلى أخرى، وهي بمراحلها الثّلاثة الّذي جعلها لها **مالك بن نبي** تشكّل دورة مترابطة وحتميّة لكلّ الحضارات.

الدّورة الحضارية عند مالك بن نبيّ:

إنّ الحضارة لا تدوم على حالة واحدة، وإنّما تمضي إلى غيرها. يقول تعالى:﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾*.وعن دورة الحضارة يقول **ابن نبيّ**:"إذا نظرنا إلى الأشياء من الوجهة الكونيّة، إنّنا نرى الحضارة تسير كما الشّمس فكأنّها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشّعب ثمّ متحوّلة

1-المصدر نفسه ،ص:140.
2-مولود عويمر:مالك بن نبي رجل الحضارة-مسيرته و عطاؤه الفكري-،دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع(د.ط)،(د.ت)،ص:184.
3-مالك بن نبي:القضايا الكبرى،دار الفكر المعاصر،بيروت،لبنان،ط1، 1420ه،2000م،ص:60.
4-مالك بن نبي:شروط النهضة،ص:45، 150.
*سورة آل عمران:الآية140.

إلى أفق شعب آخر... وهيهات أن تقف فإنّ الأقدار لا تلبث أن تقود الحضارة إلى حيث قدّر الله لها السّير من دور إلى دور ومن فجر إلى فجر"[1] .

فالحضارة تمرّ بمراحل يتبع بعضها بعضا، وهي منطبقة على كلّ الحضارات، لم تسلم منها أيّ واحدة ،وهذه المراحل هي: مرحلة الرّوح، مرحلة العقل، مرحلة الغريزة.

ا-مرحلة الرّوح:

هي مرحلة تسود فيها الفكرة الدّينيّة ويكون الاحتكام فيها للدّين. ويطبّق **مالك بن نبيّ** هذه المرحلة على المجتمع الإسلامي، ويعتبر أنّ أوّل خطوة خطاها وهو يعيش مرحلة الرّوح أنّه حطّم الحدود القبليّة الّتي تفصل بين أفراده وبناها على أسس جديدة متفتّحة، حدّد الإسلام قوامها ضوابطها[2]. يقول:" مزّقت هذه الكلمة (اقرأ) ظلمات الجاهليّة وقضت على عزلة المجتمع الجاهليّ ،ورأى النّور مجتمع جديد متفاعل مع العالم ومع التّاريخ، تشرع بهدم ما بداخله من حدود قبلية ليؤسّس عالمه الجديد من الأشخاص"[3]. فالحضارة الإسلاميّة ظهرت بذورها بظهور الرّسالة المحمّديّة الّتي قضت على الفوارق وجاءت بدستور منّظم وشريعة سمحاء. "رسمت الرّسالة أثارا جديدة ونتائج اجتماعية جديدة إنّما بالوسائل الحضارية نفسها لأنّ عالم الأشياء لم يكن بجدّ قد استطاع تغيير وسائله وهكذا بدت هذه اللّحظة فيما فعل المهاجرون والأنصار إذ وضعوا مواردهم على سواء بينهم ليواجهوا المرحلة الجديدة"[4].

والمسلم في هذه المرحلة لم يعد يمارس نشاطه الغريزيّ كما منحته إيّاه الطّبيعة ذلك لأنّ هذه الغريزة أصبحت تهيمن عليها الفكرة الدّينيّة أو قانون الرّوح وتعمل على تنظيمها وكبح جماحها[5] .

وقد وصفه **ابن نبيّ** " إنّه التّطوّر الّذي تُروّض فيه الغرائز وتسلك في نظام خاصّ تكبح فيه وتتقيّد عن الانطلاق"[6].ولكنّ هذه الغرائز قد تطغى وتبدأ بالسّيطرة على الأفراد، فتفقد الرّوح نفوذها تدريجيّا.

1-مالك بن نبي:شروط النّهضة،ص:55.

2-أحمد بلّاسي:المدخل إلى فكر مالك بن نبي ،ص:56.

3-مالك بن نبي:مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي،ص:40.

4-المصدر نفسه،ص:79.

5-أحمد بلّاسي:المدخل إلى فكر مالك بن نبي،ص:58.

6-مالك بن نبي:شروط النهضة،ص:75.

ب- مرحلة العقل:

لا تستمرّ مرحلة الرّوح في التّحكّم وتسيير الأمور، وحينئذ تشرع الغرائز في التّحرّر من قيودها تدريجيّا، وإذا كان خطّ الحضارة في المرحلة الأولى كان تصاعديّا فإنّه في مرحلة العقل أفقي.ونعلم أنّ القيادة كانت بيد الفكرة الدّينيّة ولكن في هذه المرحلة تصبح للعقل[1].

ويواصل ابن نبي تطبيق هذه المراحل على الحضارة الإسلامية، فابتداء من واقعة صفّين عام 38هـ. عرف المجتمع الإسلامي منعطفا خطيرا جعله ينتقل من مرحلة الرّوح إلى مرحلة العقل[2]. فأوّج أيّ حضارة يعرف طغيان الغرائز الّتي تواصل الجماح بيد الفكرة الدّينيّة سعيها إلى الانطلاق والتحرّر وتستعيد الطّبيعة غلبتها على الفرد وعلى المجتمع شيئا فشيئا[3].

وعندما بلغ هذا التّحرر تمامه يبدأ الطّور الثّالث من أطوار الحضارة.

ج- مرحلة الغريزة:

هي أخطر المراحل الّتي تمرّ بها الحضارة، فالغريزة كشفت وجهها وتحرّرت تماما كما يقول **ابن نبي** وأصبحت لها سلطة تكاد تكون مطلقة، وذلك لأنّ الفكرة الدّينيّة لم تعد قادرة على أداء وظيفتها الاجتماعية أي التّحكم في الغريزة كما كانت في السّابق. وإذا طبّقت هذه المرحلة على المجتمع الإسلاميّ فإنّها تبدأ منذ عهد الانحطاط أو ما بعد الموحّدين لأنّ سقوط دولة الموحّدين كان خطوة إلى الوراء. ويستمرّ **مالك بن نبي** هذا العهد الّذي آل إليه المجتمع الإسلاميّ **"عهد القابليّة للاستعمار"**، لأنّه مهّد الطّريق لأوروبّا لتحلّل أوطاننا ومصادر ثرواتها وتعتدي على مقدّساتنا الرّوحيّة[4].

إذن هذه هي المراحل و الأطوار الّتي تعرفها كلّ حضارة، فلا بدّ أن تبدأ أوّلا بالظّهور الّذي تكون فيه الأخلاق سائدة وهي الحاكمة، ثمّ تنتقل إلى مرحلة الازدهار حيث يبدأ الاحتكام للعقل واتباع الشّهوات يظهر قليلا لتختم دورة الحضارة بطغيان الغرائز وبالتّالي فساد الأخلاق وهذا ما يبشّر

1-أحمد بّاسي:المدخل إلى فكر مالك بن نبي،ص:60

2-المرجع نفسه،ص:60.

3-المرجع نفسه،ن.ص.

4-مالك بن نبي:شروط النّهضة،ص:69.

بانهيار الحضارات .وكذلك **مالك بن نبي** عنده سقوط الدّول ليس نهائيّا وإنّما يمكن أن تتجدّد الدّول إذا توفّرت عوامل مساعدة على ذلك كما أشار **ابن نبي** إلى مشكلات الحضارة الّتي تظهر لّما تطغى الغريزة وهذه المشاكل حتّى تعالج لابدّ من إصلاح الإنسان لأنّه محرّك الحضارة، وهو يحتاج إلى توجيه ثقافيّ يشتمل على الأخلاق والجمال الّذي يكوّن الأذواق ومنطق عمليّ يحدّد أشكال النّشاط العامّ[1].وحتّى تعود الحضارة من جديدة على الأفراد أن يواجهوا المشكلات مستبشرين متفائلين لا متشائمين، وأن يعطوا لكلّ أمر قيمة ويبتعدوا عن التّساهل والنّظر إلى الأشياء على أنّها مستحيلة، والأمر الآخر هو القيام بالواجب والتّركيز عليه أكثر من المطالبة بالحقوق. وذلك لأنّ المجتمع الّذي يرتفع وينمو يعني أن لديه رصيد من الواجب فائضا على الحقوق[2].

وما ذكره **ابن نبي** في نظريّته هو أنّ الحضارة ليست شيئيّة تركّز على المادّة واستيراد الأشياء من عند أمم أخرى، وعند ذلك لا تصبح حضارة وإنّما تمثّل ركاما مكدّسا من الأشياء المتشتّتة الفاقدة للتّآلف[3].

*وخلاصة رأي **مالك بن نبي** هو أنّ الحضارة جملة من العوامل المادّيّة والمعنويّة ترتكز على تآلف ثلاثة عناصر مترابطة تحرّكها الفكرة الدّينيّة، ويعتبر الإنسان أساس الدّورة الحضاريّة الّتي تمرّ بمراحل ثلاث متعاقبة، والحضارة لا تفنى وإنّما تعود للظّهور من جديد ،وهذا التّجدّد يتوقّف على جهد الإنسان وفاعليته.

هذا عن الحضارة في التّفكير العربيّ ونلاحظ فيه أنّ هناك نقاط مشتركة بين العالمين؛ فكلّ منها يعتبر الحضارة جمع بين المادّة و الرّوح وحصيلة لجهود الإنسان الّذي يعدّ صانع الحضارات ومحرّكها في مراحلها الثّلاث. كما أنّهما يذهبان نفس المذهب حينما يقولان بفكرة تجدّد الحضارة وتركيبها الّذي يرتكز على عامل الأخلاق والتّربية. و من هنا يبدو تأثّر **ابن نبيّ بابن خلدون**.

1-المصدر نفسه،ص:87.
2-مالك بن نبي:تأمّلات، ص:30-31.
3-مالك بن نبي:القضايا الكبرى،ص:57.

الفصل الثّاني:عوامل قيام الحضارة و سقوطها من القرآن

-المبحث الأوّل:عوامل قيام الحضارة من القرآن

-المبحث الثّاني:عوامل سقوط الحضارة من القرآن

إنّ القرآن الكريم كتاب الله المنزّل على سيّدنا محمّد **صلى الله عليه وسلم**، اشتمل على كلّ ما يهمّ الفرد في حياته و لم يقتصر على جانب الدّعوة إلى الإسلام فقط ، فقد حوى القرآن مبادئ وأسسا ودعا إلى صفات وأخلاق، وتضمّن أحكاما وعبادات لا تصّح حياة المسلم إلاّ بها، ولا يستقيم للأمّة شأن إلاّ إذا توفرّت فيها. فقد أشار الله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب الكريم إلى عوامل من شأنها أن تدفع الأمّة عاليا وتبني لها صرح الحضارة القويّة. كما أنّه سبحانه بيّن للمسلمين خاصّة وللعالمين الأسباب الّتي تؤدّي بالحضارة إلى السّقوط، وتهلك الأمم وتقضي على ما بنته طوال الأيّام. وهذا ما سنتعرّف عليه في هذا الفصل.

المبحث الأول: عوامل قيام الحضارة من القرآن

إنّ القرآن الكريم هو الكتاب الخالد الّذي أنزله الله على رسوله الكريم ليكون النّور والضّياء لكلّ مسلم في هذا العالم، يستمدّ منه عقيدته الّتي يؤمن بها والنّظام الّذي يسير وفقه في حياته، ولقد فتح الله في القرآن بما جاء فيه من نظم وأسس أبواب الحضارة وأوضح معالمها ودعائمها الّتي تجعلها قويّة وتصبغها بصبغة الإنسانيّة، فالقرآن انطوى على مبادئ وأشار إلى عوامل وأسس تعدّ القواعد الأساسيّة لنشأة الحضارة ورقيّها. ومن هذه العوامل نذكر:

1- العقيدة والإيمان:

إنّ جوهر القرآن هو العقيدة الّتي تقوم على وحدانية الله تعالى وحدانية مطلقة في الذّات فلا شريك له، وفي الصّفات فلا شبيه له، فلا تشبه صفاته المخلوقين، وفي الأفعال فهو وحده خالق الكون ومدبّر قوانينه، وفي العبادة فهو المعبود وحده لا شريك له في عبادته[1].

وإذا أردنا أن نعرّف العقيدة فإنّنا سنجد لها عدّة معان لغويّة منها: الصّدق والثّبات، فأساس التّسمية في اللّغة هو ما انعقد عليه القلب واستمسك به وتعذّر تحويله عنه من غير نظر إلى منشأ العقيده.

---

1 شوقي ضيف: الحضارة الإسلامية من القرآن والسّنة، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص:3.

أمّا اصطلاحا فتطلق العقيدة على كلّ فكرة كلّيّة عن الكون والإنسان والحياة، وهي كذلك الإيمان المطابق للواقع الثّابت بالدّليل العقليّ[1].

فالعقيدة إذن أساسها التّوحيد والإيمان.ويرى سيّد قطب أنّ البشريّة بدأت حياتها مؤمنة موحّدة ثمّ انحرفت إلى جاهليّة ضالّة مشركة بفعل عدّة عوامل متشابكة كامنة داخل الإنسان ونابعة من تركيبه النّفسيّ، العقليّ والجسديّ ،وفي العناصر الخارجيّة الّتي يتعامل معها كالبيئة. وبعد الانحراف يأتي الرّسول بذات الحقيقة، وإنّ أجيالا من ذرّية آدم بعد استخلافه في الأرض وُلدت مسلمة وعاشت مسلمة، حيث كانت عقيدة التّوحيد عقيدته وعقيدة زوجه وأبنائه، ثم انحرفوا بنفس العوامل الذّاتيّة والخارجيّة الّتي انحرفت بها البشريّة عبر التّاريخ[2]. وفي القرآن وردت آية تثبت ذلك وهي قوله تعالى:﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾*.

وجاء في تفسير **النّسفي** أنّ معنى" **كان النّاس أمّة واحدة**"متفّقين على دين الإسلام من آدم إلى نوح عليهما السّلام ، ثمّ اختلف النّاس " **بغيا بينهم**" أي حسدا بينهم وظلما لأنفسهم وغيرهم لحرصهم على الدّنيا الحرص الذّميم[3] .

فالعقيدة كما سبق وأن ذكرنا ترتكز على الإيمان الّذي يعني التّصديق في التّعريف اللّغوي، أمّا شرعا فيقصد به الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللّسان، والعمل بالأركان، والإدمان بالجوارح الظّاهرة والباطنة، وانقيادها لأوامر الله وأحكامه واجتنابها لنواهيه و محرّماته.

يقول رسول **الله (صلى الله عليه وسلم)**:" **الإِيمَانُ عَقْدٌ وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ**"[4] .

1- عزّ الدّين الخطيب التّميمي وآخرون: نظرات في الثقافة الإسلامية، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص59- 60.

2-سيد قطب: في ظلال القرآن ،ج 3،دار الشّروق ، القاهرة،مصر ،ص :100.

*سورة البقرة:الآية:213.

3- النسفي،أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمد:التّفسير،ج1،دار الكتاب العربي،بيروت، لبنان،(د.ط)،(د.ت)،ص.80.

4-عبد الحميد مهدي:ركائز الحضارة في الإسلام-مفهوم العلم،الإيمان،العمل-،دار الشهاب ،باتنة،(د.ط)،(د.ت).ص:22.

فهو محوّل ربّاني للطّاقات البشريّة من الضّعف إلى القوّة، ومن الذّل إلى العزّة، ومن العداوة إلى الألفة والأخوّة[1].

والإيمان لا يكتمل إلاّ إذا استوفى عناصره الّتي يُبنى عليها والّتي لا يتحقّق إلاّ بوجودها وهي:

ا- الإيمان بأنّ الله واحد لا شريك له في ألوهيته وربوبيته، يقول تعالى:﴿ **قل هو الله أحد، الله الصّمد**﴾* .

ب-الإيمان بأنّ الله خلق من النّور أجساما سمّاهم الملائكة وطبعهم على الخير والطّهر، وزوّدهم بقوّة لا يعلم مداها إلاّ هو. فهم عباد مكرمون يكتبون كلّ ما يصدر من العباد في ملّفات تسمّى الصّحف. يقول تعالى:﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾* .

ج- الإيمان بأنّ الله خلق من النّار أجساما سمّاهم الجنّ وجعلهم كالإنس قابلين للهداية والضّلالة. يقول تعالى:﴿ **وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا**﴾* .

د-وليس هذا فحسب بل لا بدّ من الإيمان بأنّ الله :﴿ **بَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ،ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ**﴾* . وأنّه أكرم المخلوقات عند الله وأفضلها لِما أودع فيه من عظيم المزايا، ولما أعدّه من جليل الأعمال، وأنّه جعله خليفة له في الأرض لعمارتها بالخير والصّلاح.[2]

ه- الإيمان بأنّ الله أنزل كتبا ذات قيمة يبيّن فيها أصل الإنسان، ودوره في الحياة ،ومصيره وعلاقته بنفسه وبخالقه وبالكون الّذي يحيط به. والكتب الّتي ذكرت في القرآن أربعة هي: الزّبور الّذي أنزل سيّدنا داود عليه السّلام، التّوراة الّتي أنزلها الله على سيّدنا موسى عليه السّلام، الإنجيل الّذي أنزله الله على سيّدنا عيسى عليه السلام، والقرآن الكريم الّذي أنزله الله على خاتم المرسلين سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم[3].

و- الإيمان بأنّ الله اختار من بين البشر رجالا اصطفاهم بالنّبوّة والرّسالة فأنزل عليهم البيّنات وأيّدهم بالمعجزات، وأنّهم أكمل الخلق آدابا ومعاملة، جُعلوا نماذج للبشر يُقتدى بهم.

---

1 - المرجع نفسه، ص :31

*سورة الإخلاص:الآيات1-2.
*سورة الجن:الآية11.
*سورة الانفطار:الآيات 10-12.
*سورة فاطر:الآيات27-28.

2 - عبد الحميد مهدي: ركائز الحضارة في الإسلام- منهوم العلم،الإيمان، العمل، ص: 28-34 .

3 - المرجع نفسه،ص:35

ز- الإيمان بأنّ الله خلق عالم الحيوان والنّبات و الجماد لحكم كثيرة هو يعلمها، ونحن نجهلها، وجعل كلّ هذه العوامل مسخرّة للإنسان، يقول تعالى:﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾*.

ح- الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه، فأمّا القضاء فهو الحكم والأمر والإدارة، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾* .

وبالنّسبة للقدر فمعناه: التّقدير و التّرتيب و التّنظيم والتّخطيط، يقول تعالى:﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾* .

وآخر عناصر الإيمان هو الإيمان باليوم الآخر الّذي هو الحياة بعد الموت، يقوم فيه النّاس لربّ العالمين، ليحاسبوا على أعمالهم الّتي اقترفوها في الحياة الدّنيا[1].

إنّ هذه العناصر من شأنها أن تزيد من حبّ المؤمن لربّه، ويتيقّن أنّ العالم له ميسّر واحد، وله نظام وقوانين يسير وفقها، كذلك تجعل المؤمن شديد الارتباط بربّه ،مستشعرا بقيمته أوّلا لأنّ الله سخّر له ما في الكون، وثانيا يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه و هي تعمير الأرض ونشر الخير والصّلاح فيها.

فإذا اكتمل الإيمان وقوي زادت العقيدة الّتي تؤدّي دورا كبيرا في بناء المجتمعات وتكوين الأمم وقيام الحضارات، و لعلّ أفضل دليل يثبت دورها هو ما فعلته العقيدة الإسلامية في أهلها، حيث حرّرتهم من عبودية الرّغبات، و الإذلال للجبابرة و الطّغاة[2].

فالحضارة من هنا لا تظهر و لا تبعث إلاّ بالعقيدة الدّينية كما ذكر مالك بن نبيّ إذ يقول: "الحضارة لا تظهر في أمّة من الأمم إلاّ في صورة وحي يهبط من السّماء، يكون للبناء شريعة

*سورة فاطر:الآيات [27 -28].
*سورة:الأحزاب:الآية36.
*سورة الفرقان:الآية2.
1 - عبد الحميد مهدي: ركائز الحضارة في الإسلام- منهوم العلم، الإيمان، العمل-،ص : 35 ،46 .
2- محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص: 175.

ومنهاجا، أو هي على الأقلّ تقوم أسسها في توجيه النّاس نحو معبود غيبيّ فكأنّما قُدّر للإنسان ألاّ تشرق عليه شمس الحضارة إلاّ حيث يمتدّ نظره إلى ما وراء حياته الأرضية"[1] .

لذا فإنّ نهوض أيّ أمّة حضاريّا متوقّف على قوّة عقيدتها الدّينية الثّابتة في نفوس أبنائها، فبفضل العقيدة استطاع بَدْوُ الصّحاري العربيّة أن يفتحوا قسما من أرض الحضارات كانت لها سطوة على الأمم وهيمنة كبيرة على الشعّوب[2].

ومن هنا نستخلص أنّ أساس بناء الأمة ورقيّها وتكوين الحضارة مرهون بعقيدتها الدّينيّة الّتي تعتبر محرّكا لحركة التّاريخ، وقاعدة متينة ترتكز عليها حياة النّاس، فمنها تنطلق سلوكيات البشر، وعلى ضوئها تتحقّق سعادتهم ويكون النّجاح والازدهار.

2- العبادة:

إنّ العبادة عهد قديم أخذه الله على بني آدم، فقال تعالى:﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنْ اُعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾*. والعبادة في تعريفها اللّغوي تعني: الطّاعة والتّذلّل والخضوع، فيقال: طريق معبّد: أي مذلّل للسّير عليه، وبعير معبد أي سهل الانقياد[3].

*أمّا في تعريفها الشّرعي فالمقصود منها: طاعة الله وامتثال أوامره ونواهيه في جميع مجالات الحياة،مع منتهى الإخلاص والتّسليم والتّعظيم والمحبّة له [4]. ولقد تكرّرت الدّعوة إلى العبادة و الاستغفار والتّقوى في القرآن كثيرا، وكانت هذه المفاهيم الثّلاثة محور الرّسالات الّتي دعا إليها الأنبياء والرّسل.يقول تعالى:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾*.وهكذا كانت العبادة من الغايات الّتي دعا إليها الرّسل، و الغاية الكبرى الّتي خُلق من أجلها الجنّ والإنس، فقال تعالى:﴿**فَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الإِنْسَ إِلَّا**

1- مالك بن نبي: شروط النّهضة ، ص: 84 .
2 محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص: 174.
*سورة يس:الآية60.
3 -ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عبد) ،ج10،ص:50.
4 -عزّ الدين الخطيب وآخرون : نظرات في الثقافة السلامية ص: 186 .189 .
*سورة:الأنبياء :الآية25.

﴿لِيَعْبُدُونِ﴾* . فهذه الآية تبيّن أن الهدف من الوجود الإنسانيّ محصور في العبادة، فهي الغاية الوحيدة من خلق الجنّ والإنس. والخروج عن هذه الغاية يوقع الإنسان في الضّلال والانحراف. والعبادة فضلا عن الأجر الّذي يناله العبد منها، تعتبر وسيلة تثقيفيّة وتعليميّة تربط الإنسان بكلّ جوانب الحياة الماديّة والطّبيعيّة والرّوحيّة، فبالصّلاة مثلا يعرف الإنسان المؤمن حقائق ومعلومات فلكيّة حيث يتابع المصلّي طلوع الفجر وتحرّك أوقات النّهار واللّيل[1] . وتعتبر العبادة الوحدة المركزيّة في كلّ تحرّكات البشر، فقد دعا الله النّاس إلى توحيده بالعبادة، وبيّن سبحانه موجبات وأسباب ذلك له وحده"[2]، فقال :﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾* .

فطلب الله العبادة من النّاس كلّهم دليل على عظمة هذا العمل وأهمّيته. وهذا عكس ما أثبتته نظرّية التّفسير المادّيّ الّتي تعلّل التّدين وكثرة التّعبّد بردّه إلى ضعف الإنسان، وترى أنّه عندما يعجز البشر عن مواجهة الطّبيعة و ظروف الحياة الّتي تقف أمامهم فإنّ الإنسان يلجأ إلى عبادة هذه الطّبيعة خوفا ورهبة منها .وهذه النّظرية تفسّر التّدّين بأنّه سلوك انعكاسيّ لظاهرة الخوف المستقرّة في أنفس الضّعفاء من البشر[3] .

ولكنّ الصّحيح هو ما أثبته التّاريخ بخصوص العابدين الّذين اُعتبروا أقوى البشر جأشا و إرادة، فلولا العبادة لما كانت الحياة تسير سيرها الطّبيعي، ولما انتظم عيش النّاس، فبها يتحرّر الإنسان، ويُحمى من كلّ نقص وتطرّف، ويعرف التّوازن والاعتدال في حياته[4] .

---

*سورة الذّاريات:الآيتين [55 -56].
1- محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص: 186-189 .
2 المرجع نفسه، ص: 190.
*سورة البقرة:الآيتين [21-22].
3 -المرجع نفسه، ص: 194 .
4 - المرجع نفسه، ص: 194 .

و إذا كانت العبادة أساس ضروري من أسس بناء الحضارة ورقيّها فإنّنا نحتاج إلى عوامل أخرى لا تقلّ شأنا عن هذا الأساس، و التّفكّر في ملكوت الله (التّصور في الوجود) والأخلاق الفاضلة الّتي تحفظ المجتمع، وتزيد من تماسك أفراده. فإذا جمعت العبادة مع التّفكّر في خلق الله والأخلاق تحقّق للأمّة الرّقيّ و حصلت على بناء حضاري.

3- التّفكّر في ملكوت الله: (التّصور عن الوجود)

إنّ المتأمّل لكتاب الله سيجد آيات كثيرة تدعو البشر إلى التّفكير في خلق الله والتّدّبر في هذا الكون لاستجلاء الحقيقة والمعرفة ولاكتشاف سرّ الوجود وعظمة الخالق. قال تعالى :﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ،وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ،وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾* .وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾* .

فهذه الآيات وغيرها تقرّر أنّ الله خلق الكون عونا للإنسان لأداء رسالته، وجعله مسخّرا له، لذلك حاول الإنسان منذ أقدم العصور تعليل الظّواهر الطّبيعيّة والأحداث الاجتماعيّة والتّاريخيّة، وإيجاد مبرّرات ومصوغات لوقوعها. فبالنّظرة لهذا الكون والتّأمل فيه تتبيّن قيمة الإنسان وتفضيل الله على سائر الكائنات الّتي خلقت من أجل خدمته.

ونظرا لقيمة الإنسان وتكريم الله له فقد أناط به مهمّة الاستخلاف في الأرض،و هذا بعد أن زوّده بوثائق الاستخلاف ،فمنحه عقلا وفؤاد وسمعا و بصرا و آتاه الوحي، وكل ما تقتضيه ضرورة الاستخلاف، وحمّل الإنسان المسؤولية من يوم وجد نفسه على الأرض[1].فقال الله تعالى:﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾* .

---

*سورة البقرة:الآية 38.

*سورة آل عمران:الآية190.

1-محمد هيشور :سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها، ص: 150،152، 156.

*سورة البقرة:الآية38.

وعمل القرآن مع الإنسان يبدأ بكشف الحقائق الهامّة الكامنة في ذاته، ويبرز القرآن هذه الحقائق الذّاتيّة أمام فكر البشر ومشاعره، بدعوته إلى التّدبّر في نفسه، والنّظر في الأرض والسّير فيها والاعتبار بحوادث الدّهر ومصائر الشّعوب. فإذا انتبه الإنسان إلى الحقائق الموجودة في هذا الكون والكامنة في نفسه، وعرف أنّها سنن الله في التّحضّر، أدرك دوره في الحياة وواجبه تجاه نفسه وتجاه الله وتجاه النّاس وتجاه الوجود عامّة[1].

ولا يكون الإنسان على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقه، ولن يستطيع خدمة الأرض وإعمارها إلاّ إذا تحلّى بمكارم الأخلاق و تعلّم ما ينفعه وينفع غيره وعمل ما يحقّق له السّعادة والازدهار.

4-توخّي مكارم الأخلاق:

قبل أن نبيّن الأخلاق الّتي نادى إليها القرآن والّتي تعتبر أولى دعائم الحضارة، لابدّ أن نعرّف الأخلاق؛ فهي لغة: جمع خُلُقٍ وهو السّجية والطّبع والمروءة و الدّين الّذي هو بمعنى الخلق في لسان العرب. قال تعالى:﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾* أي سجيّة عظيمة ودين عظيم[2].

*واصطلاحا المقصود بالأخلاق الأوصاف مذمومة كانت أم محمودة. عرّفها **القرطبي** بقوله: "الأخلاق أوصاف الإنسان الّتي يعامل بها غيره وهي محمودة أو مذمومة كالعفو والحلم و الجود والصّبر وتحمّل الأذى والرّحمة والشّفقة وقضاء الحوائج... ونحو ذلك والمذمومة ضدّ ذلك".

وإنّ أساس الأخلاق هو العقيدة والإيمان، فما كان من الأخلاق منفصلا عن الإيمان فلا عبرة به.

والحديث النّبويّ يثبت ذلك، لقول رسول الله (**صلى الله عليه وسلم**):" **إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**"[3]. و لقد جعل الله للمسلمين قدوة يعتدون بها، تتجسّد فيها مكارم الأخلاق التّامّة الّتي أخذت من ميراث جميع الرّسل وزادت عليه[4].وقد أثنى الله على رسوله الكريم بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ**

1- محمّد سعيد رمضان البوطي : الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية لماذا.....وكيف؟ ،دار الفكر المعاصر،دمشق،سوريا، ط1 ،1404ه، 1984م،ص:40.

*سورة القلم :الآية4.

2- ابن منظور : لسان العرب: مادة(خ .ل .ق)، مج2، ص: 141.

3 - عز الدين الخطيب وآخرون:نظرات في الثّقافة الإسلامية،ص:258 ،260.

4 - يوسف القرضاوي: السّنة مصدرا للمعرفة و الحضارة، دار الشّروق، القاهرة، مصر ،ط3،1423ه، 2002م، ص: 257.

لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. و قال جلّ في علاه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾* .

ومن الأخلاق الّتي يدعوا إليها القرآن التّعامل مع النّاس برفق لا عنف، وبالسّماحة لا الفظاظة، ومجاهدة نوازع الغضب، وكظم الغيظ والعفو عند المقدرة. قال تعالى :﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾*. وليس هذا فقط بل دعانا الله سبحانه إلى التّسامح مع أصحاب الدّيانات الأخرى، ومعاملتهم بالحسنى وهذا سبب في تليين القلوب وتحبيب الدّين الإسلامي إلى الأمم وفتح الشّعوب، ودخولهم في دين الله أفواجا.

وحثّنا على التّمسّك بالصّدق، والنّصح المخلص لمن يطلب النّصيحة " **فالدّين النّصيحة**"، ومجّد الله ورسوله التّواضع لأنّه يوفّق للمودّة بين المسلم وأخيه كما أوصى ربّنا تعالى باستشعار الصّبر سواء كان صبرا على أداء الطّاعات وامتثال أوامر الله، أو صبرا عن ارتكاب المعاصي المحرّمة، أو صبرا على ما يترل بالمسلم من الخطوب والمحن، أو صبرا في الحرب والجهاد. وحثّ الله عز وجل ورسوله الكريم على العمل الصّالح بأنواعه وبحسن الخلق والمعاملة الطّيّبة[1]. ولا نشّك في أنّ كلّ ما يقوم به المسلم من عمل صالح إلاّ ويجزيه الله سبحانه الجزاء الأوفى عنه.

فالأخلاق قاعدة عريضة تشتمل أعمار الإنسان كلّها فلا يوجد شيء في الحياة خارج عن دائرة الأخلاق، سواء كان هذا الشّيء فرديّا أو نشاطا سياسيّا أو اجتماعيّا أو اقتصاديّا أو ثقافيّا أو فنّيا، فالعنصر الأخلاقي يوظّف في كلّ المجالات ويغطّي جميع جوانب الحياة الحضارية[2] .

وكيفما كان نوع الأخلاق المهمّ أن تكون حميدة ، لأنّها تبقى مبدأ ضروريّا لنشأة الرّيادة و القدوة الإنسانيّة، ولا يقوم صرح المجد إلاّ على أساس الأخلاق، والآداب القديمة، ولذا أمر الله المؤمنين بالتّحلّي بمكارم الأخلاق ونبذ كلّ ما يؤدّي إلى تدهور القيم، وفكّ روابط المجتمع[3] .

---

* سورة الأحزاب: الآية21.

*سورة الأعراف:الآية199.

1-شوقي ضيف:الحضارة الإسلامية من القرآن و السّنة، ص:9.

2 - محمّد قطب: مفاهيم ينبغي أن تصحّح، دار الشّروق، القاهرة، مصر، ط1 ،1415ه، 1994م،ص : 214 .

3-محمد هيشور:سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها،ص:200.

إذن الأخلاق ركيزة أساسية لبناء المجتمعات،ودعامة لا غوض للحضارة بدونها، لذلك يجب التّحلّي بمكارم الأخلاق حتّى تؤسّس حضارة قويّة لا تزعزعها رياح التّغيير ولا مطامع الفاسدين أو مطامح المنحرفين.

5- الاعتبار:

إنّ الأمم والشّعوب الماضية الّتي تشكّل حركة التّاريخ لا يجب النّظر إليها على أنّها مجرّد أمم انقضت وقائعها وحوادث دون إدراك ومعرفة القوانين الّتي تحكمها، وإنّما علينا الاعتبار والاتّعاظ بما حدث لها، واستخلاص الدّروس الّتي تفيد.

وفي القرآن الكريم ذكرت الكثير من القصص الّتي ركزّت على العبر و العظات، و لم يكن هناك اهتمام بالمقوّمات التّاريخيّة من حيث الزّمان والمكان، وهذا ما عمّم فائدة العبرة وجعل تأثيرها ودورها كبير في النّفوس والمجتمع. ومعظم الآيات الّتي تتناول هذا الموضوع -أي العبر- مكّيّة، لأنّ السّور والآيات المكّيّة نزلت لبني الإنسان باني الحضارات ومنشئ المجتمعات،وفي القرآن الكريم المكّيّ ذكرت كثير من قصص الأنبياء والأقوام وأمراض الأمم النّفسيّة والعقديّة من شرك ووثنيّة وظلم، وما ترتّب على هذا من آثار في جميع مناحي الحياة المختلفة.

لذلك على دارس التّاريخ أن ينتبه لما ورد في القرآن الكريم من أنباء الأمم الغابرة، ومالها من أثر في تعميق الوعي الاجتماعيّ والتّاريخيّ لدى الإنسان، وما لها من دور في تقويم الاعوجاج، فأحداث التّاريخ وأنباء الأمم السّابقة كلّها دروس وعبر،فهي مادّة تأمّل وتفكير،ولا شكّ أنّ فائدة الاعتبار هو السّابق إلى الخيرات والاستقامة على الطّاعات والحذر من مواطئ الانحراف والانزلاقات[1].

والعبرة كمعنى تعدّ قضية فكرية ومجال بحث، تحتاج إلى دراسة مع أنّها لم توف حقّها من الدّراسة، و لم يتناولها من القدماء سوى علماء اللّغة الّذين صرفوا اهتمامهم إلى بيان المقصود البلاغي.

1-المرجع نفسه،ص:161-162.

ونجد في القرآن معان للاعتبار؛ فمن حيث كون العبر عاملا تربويّا، فقد قال تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾*. أمّا من حيث الدّعوة إلى التّأمّل والاعتبار في خلق الله كالأنعام، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ *.

وس ناحية النّظر إلى الزّمان كيف يتقلّب و يدور[1] ، قال تعالى:﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾*.

ولقد كان لآثار الماضيين مما اكتشفه الدّارسون دور في صقل المواهب وتأكيد المعارف الصّحيحة، وبيان الصّحيح والفاسد منها، ولا تزال تجارب السّابقين تكشف للاّحقين أخطاءهم وتريهم سلبيات أعمالهم، وتقودهم نحو الأحسن.

وما دعوة القرآن للنّظر في عواقب السّابقين وأخبارهم إلاّ دليل على علم الله بأنّ الإنسان عادة ما يَعْتَبِرُ بمن هو أكثر منه وأشدّ قوّة وأعظم شأنا، مثل قوم عاد و ثمود[2].

وإنّ النّظر في آثار الغابرين نظرة التّأمل والتّفكّر تهزّ القلوب الغافلة، فحينما تجول العقول والقلوب في مصارع القرون،وتطالع العيون أثارهم ومساكنهم عن كَثَب تترسّم في الخيال الدّور والقصور التي كانت قائمة، وكيف خلت من أهلها وصارت شخوصهم الدّاهنة وخواطرهم وآمالهم وحضارتهم كلّها أحلاما وأطلالا، حينئذ تتحوّل هذه الظّواهر كلّها وهذه الآثار الّتي ذكرت عن الأمم السّابقة إلى عوامل تربية وبناء الأمم و المجتمعات[3].

ومعلوم أنّ النفس البشريّة شديدة الحساسية لمصارع الغابرين، وأقلّ يقظة فيها و أقلّ تفتّحا كافيان لاستعادة الذّكريات والتّصوّرات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثّرة، وكثيرا ما نرى النّاس يبكون في

---

* سورة النّازعات: الآية 26.
*سورة النّور:الآية 44.
1- محمد هيشور: سن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ، ص: 163.
*سورة النّور : الآية44.
2 محمد هيشور:سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها،،ص: 162 ،165.
3- المرجع نفسه، ص :168.

الذّكريات لشدّة الفرح والسّرور أو الكرب والأحزان[1].

ومن أكثر الأقوام ذكرا في القرآن فرعون وثمود، فالقرآن حافل بأخبارهما وما حلّ بهما وبمصيرهما، وكلّ هذا ذكر ليكون عبرة لأولى الألباب.

فأخبار الأمم السّابقة وآثارهم الّتي أحصاها القرآن عبرةٌ لمن أراد بناء الأمم وتأسيس الحضارات ،لأنّ ما أخطأوا فيه سيتجاوزه اللاّحقون، وما خلّفوه من آثار سيحوّلوه إلى عوامل ترقى بالأفراد وترقّي شعوبهم وتطوّرها.

6- العلم الشّامل:

دعا الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله إلى طلب العلم والقراءة وكرّم أداءهما من أوّل آية نزلت في كتاب الله تعالى على قلب رسول الله **صلى الله عليه وسلّم** :﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ،خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ،اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ،الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ،عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾*.

والعلم هو التّصديق الجازم المطابق للواقع، بل هو إدراك حقائق الأشياء والمسائل بدليل وبرهان وهو هو يحتاج إلى عقل مفكّر مميّز، وتخيل واسع مبدع، وذاكرة حافظة مصوّرة[2]. ويعتبر الإسلام أوّل عقيدة كرّمت العلم والعلماء، فلقد أعلى الله عزّ وجل من مكانة العلماء ورفع شأنهم،

قال تعالى:﴿ **يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾* ،والرّسول **صلّى الله عليه وسلّم** جعل مقام طالب العلم في صفّ المجاهدين لإعلاء كلمة الله من ناحية الأجر و المنزلة، روى الترمذي عنه **صلّى الله عليه وسلّم** قال : **"مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ**"[3].

و كما كرّم الله العلم كرّم أدواته أيضا، فأوّل شيء أقسم به الله في القرآن تكريما له وتعظيما

1- سيّد قطب: في ظلال القرآن، ج6، ص: 3366.

*- سورة العلق: الآيات [1- 5]

2- عبد الحميد مهدي: ركائز الحضارة في الإسلام –مفهوم العلم،الإيمان، العمل-، ص: 5

*سورة المجادلة : الآية 11 .

3 - التّرمذي،أبو عيسى محمّد:الجامع الكبير،مج5،باب فضل العلم، تح:بشار عواد معروف،دار الغرب الإسلامي،ط1، 1996 م، الحديث رقم: 2785 ،ص: 29.

لشأنه هو القلم، يقول تعالى:﴿ ن وَالْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ﴾* .وذهب جمهور المفسّرين إلى أنّ النّون هي الدّواة.

وأقسم كذلك بالرّقّ المنشور و هو الوسيلة الّتي تحتفظ بالكتابة[1] ، يقول سبحانه وتعالى :﴿وَالطُّورِ وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾* .

وعن فضل العلم وردت آيات عديدة وأحاديث كثيرة كلّها تجلّ العلماء وتعلي من شأنهم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم:" **إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ،أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ**"[2].

فالعلم نافع ينال صاحبه الأجر عنه في حياته وحتّى بعد مماته، ونظر لقيمته وأهمّيته جعل الله قداسة العلم مصارعة لقداسة العبادة، لأنّه يعتبر العلم في ذاته من أسمى العبادات، ودليل ذلك أنّ القرآن الكريم دائم التّذكير بالعقل و التّدبر و التّفكير، وقد ذكر العقل باسمه وأفعاله زهاء الخمسين مرّة، وذكر العلم في مواضع من آياته تنافر المائة مرّة وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وجاء في ذكر "**أولي الألباب**" أي أصحاب العقول بضع عشرة مرّة، وذكر في " **أولى النّهى**" أي أصحاب العقول في آخر سورة طه، وجاء في القرآن أيضا ذكر الحكمة مرّات كثيرة[3].

والعلم في القرآن ليس خاصّا بل يتّصف بالشّمولية، فهو يشمل كلّ علم نافع سواء كان علما دينيّا أو دنيويا، نظريّا أو تجريبيّا مادام أنّه في خدمة الدّين، ومادام أنّه يرفع منار الحضارة. فالله لم يقيّد

---

*سورة القلم:الآية1.

1- أحمد عليّ الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر للطّباعة والنّشر، دمشق،ط2، 1401ه،1981م،ص:112-113.

*سورة الطّور:الآيات [1-3].

2-مسلم،أبو الحسين بن الحجاج النيسابوري:المسند الصحيح، كتاب الوصية ،باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته،دار المغني،ط1، 1419ه،1998م، الحديث رقم:1631 ،ص:886.

3 - محمد عبد السّلام الخفاجي: الإسلام والحضارة الإنسانية، دار الكتاب اللّبناني،بيروت،(د.ط)،(د.ت)، ص: 137 .

العباد بطلب علم محدّد و إنّما أطلق لفظ العلم ليشمل كلّ ما ينفع الأمّة[1]. يقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾*.

وما يلاحظ على العلم في الإسلام هو أنّه ليس محدّدا بمرحلة عمرية، بل أمر الله الإنسان بطلبه منذ الولادة حتّى الوفاة. جاء في الأثر :" **أُطْلُبِ الْعِلْمَ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ**" .

ولقد حرّم الله سبحانه التّقليد الأعمى الّذي لا يقوم على حجّة و لا يستند إلى دليل لأنّ ذلك رفض صريح لاستعمال العقل و الفكر، وتعطيل للمواهب وتفضيل للاسترخاء و السّير في طريق الجهل و الضّلال .يقول **صلّى الله عليه وسلّم**:" **كُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا وَ لَا تَكُنْ إِمَّعَةً** "[2].فالعلم من هنا ليس محدّدا بمجال واحد و لا مقيّدا بمرحلة معيّنة من مراحل الإنسان،ولا ينبغي فيه التّقليد لأنّ هذا الأخير يطمس معالم الشّخصية و يضيّع الهويّة،وبواسطة العلم تبنى الأمم و تبلغ الدّرجات العليا من التّقدم و بضيّع الحضارات، فضلا على أنّ طلب العلم يقرّب من الله و يورث الخشية و الأنس، وفي ذلك يقول الصّحابي معاذ بن جبل **رضي الله عنه**:" تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسة تسبيح و البحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة. وهو الأنس في الوحدة والصّاحب في الخلوة ، والدّليل على الدّين ، والصّبر على السّرّاء و الضّراء، و الوزير عند الأخلاّء، و القريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنّة. ويرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة لأنّ العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظّلم ،وقوّة الأبدان من الضّعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدّرجات العلى. والتّفكير فيه بعدل بالصّيام و مدارسته بالقيام. به يطاع الله عزّ وجلّ وبه يعبد وبه يوحّد وبه يمجّد وبه يتورّع وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال و الحرام. وهو إمام والعمل تابعه يلهمه السّعداء و يحرمه الأشقياء"[3] .

1- عبد الله ناصع علوان: معالم الحضارة في الإسلام و أثرها في النّهضة الأوروبية، دار السّلام للطّباعة و النّشر والتّوزيع، ط1،(د.ت)، ص: 8.

*سورة طه:الآية 114.

2-سعيد الحميد مهدي: ركائز الحضارة في الإسلام -مفهوم العلم،الإيمان، العمل-،ص:9، 18.

3 – المرجع نفسه،ص:20-21.

ومن هنا نعلم أنّ العلم الشّامل الّذي دعا إليه الله في كتابه وحثّ عليه الرّسول **صلّى الله عليه وسلّم** مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة خلال العصور وعبر التّاريخ فلا نهوض حضاري إلاّ به، موظّفين هذا العلم في عمل يعود بالنّفع

7-العمل:

يدعو الإسلام المسلمين إلى العمل والسّعي لكسب لقمة العيش ، حتى لا يكون الفرد عالة على المجتمع، وحتى لا يتكفّف النّاس سائلا منهم العون.

ويطلق العمل على الفعل الّذي يكون من العاقل بفكر وروّية وقصد في مكان وزمن معيّن، وهو الوسيلة الطّبيعية لكسب الرّزق واستحقاق الأجر و استثمار الثّروات، ويعدّ العمل قانونا وضعه الله لعمارة الأرض و تحقيق الحياة الفاضلة في الدّنيا و الآخرة على السّواء.

والعمل في الإسلام نوع من أنواع العبادات به يتقرّب العبد إلى الله وبه تكفّر السّيئات وتغفر الذّنوب[1].

وقد ورد في القرآن و الحديث النّبويّ الشّريف العديد من الإشارات الّتي توحي بأهمّية العمل في المجتمع وفضله.قال الله تعالى:﴿**وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾*.

وروى أنّ النبيّ **صلّى الله عليه وسلّم** رأى يد رجل تعبت من العمل فظهر عليها أثر ذلك فقال:"**هَذِهِ يَدٌ يُحِبُّهَا اللّهُ وَرَسُولُهُ**"[2] . و قال مبيّنا قيمة العمل مهما كانت نوعيته: " **لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**"[3].

و قد كان الرّسول (**صلّى الله عليه وسلّم**) يبيّن لأصحابه أنّ مباشرة العمل بجدّ و نشاط لا يقلّ شأنا عن الجهاد في سبيل الله إذا كانت النّية هي التّعفّف عن المسألة.

1- المرجع نفسه، ص:55.

* سورة التّوبة:الآية105.

2- عبد الحميد مهدي:ركائز الحضارة في الإسلام –مفهوم العلم، الإيمان، العمل-، ص:21.

3- البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله و سننه وأيامه، ج3.كتاب البيوع،باب كسب الرّجل وعمل يده،مطابع الشّعب،(د.ط)،(د.ت)،ص:61.

وأكّد الرّسول أنّ العمل كالصّلاة تماما، ذلك أنّه عندما انتهى من بناء المسجد بالمدينة المنوّرة شرع في تأسيس السّوق و تنظيم الحياة التّجارية، فقال:" **هَذَا سُوقُكُمْ فَلَا يَضِيقُ وَ لاَ يُؤْخَذُ خَرَاجٌ** "[1] .

فالمسجد يرمز إلى أعمال العبادة الرّوحية طلبا للحياة الآخرة، والسّوق يرمز إلى أعمال العبادة الدّنيويّة، عبادة الكسب والارتزاق[2]. و لا يجوز ترك الحياة الدّنيا للآخرة ولا ترك الآخرة والانشغال بالحياة الدّنيا، ولكنّ الواجب هو الجمع بين الحياتين، واعتبار الحياة الدّنيا مكان عمل وإصلاح للوصول للآخرة.وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في كتابه العزيز إذ يقول:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ**﴾* . فبعد أن أمرنا الله بترك البيع وسائر الأعمال عندما ينادى للصّلاة يأمرنا مباشرة بعد ذلك بالسّعي والانتشار في الأرض للكسب إذا قضيت الصلاة[3].

و لم يحثّنا ديننا على العمل فحسب بل أوجب إتقانه وحبّه والإخلاص فيه، وتوخّي الأمانة أثناء أدائه، يقول الرّسول **صلى الله عليه وسلم**:" **إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**".

فالعمل والسّعي للكسب ضرورة لبناء المجتمع وتأسيس الحضارات، لذا لابدّ من استثمار الجهود وتوظيف الخيرات الّتي أنعم الله بها علينا في عمل ما ينفع، وتحصيل الفائدة والأجر العظيم.

6- الجمـــال:

إنّ الجمال في القرآن تعبير موح عن قيم إنسانية وحقائق علميّة، ولا يمكن تجريد الحضارات من الصّور الجمالية، لأنّه لو كان ذلك لأصبحت المدن ساحات مظلمة والحضارات مناظر كالحة، ومعلوم أنّ الصّور الجميلة في الحياة تدفع الإنسان إلى الإنشاء و الإبداع في كافّة مجالات الحياة

1- عبد الحميد مهدي:ركائز الحضارة في الإسلام-مفهوم العلم، الإيمان،العمل-،ص:61.

2- المرجع نفسه، ص: 60- 61 .

* سورة الجمعة: الآيتين [9 10].

3-عبد الحميد مهدي:ركائز الحضارة في الإسلام:-مفهوم العلم، الإيمان،العمل-، ص:61.

الإنسانيّة، كما أنّها تؤكّد الصّلة بين الخالق و المخلوق، لأنّ الجمال يولّد الشّوق و الحبّ في النّفوس، وكلّ شوق وحّب هو قوّة لتحقيق غاية أو نيل هدف[1].

وقد وجّه القرآن نظر العرب إلى الجمال الكونيّ فيما على الأرض من زينة في السّماء بنجومها وكواكبها في قوله تعالى:﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾*.

و قد أشار إلى جمال الفضائل؛ الصّبر الجميل والهجر الجميل، التّسريح الجميل للمرأة عند فراقها بمعنى الإكرام لها، ووجّه القرآن العرب إلى الجمال المطلق، و هو الجمال الإلهيّ[2].

وعندما دعانا الله إلى السّير في الأرض والنّظر والتّأمّل في الطبيعة، لم تكن دعوته هذه تنصّب على جانب التّجريبيّ العمليّ، من أجل إدراك عظمة الله، واكتشاف كنوز الأرض بل رافق هذا التّوجيه إلى الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تهذيب الإحساس البشريّ، ورفعه إلى مستوى السّمو الرّوحيّ والأخلاقيّ للإنسان.

وإنّ جمال الطّبيعة لا يؤثّر فقط في جانب الرّوح و الإحساس، ولكنّه يدفع إلى تحويل التّأمل والإحساس إلى عمل و إبداع وكشف، والحضارة أكبر مشتقّات الطّبيعة ومحاكاة في شكلها المعماري لصورها ومناظرها الطّبيعية[3].

والقرآن تضمّن الكثير من الحقائق العلميّة و العقديّة في صور مليئة بالرّوعة و الجمال، و هذه نماذج من تلك الآيات : يقول الله تعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ**

1- محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها، ص:202.

*سورة الكهف:الآية7.

1- عماد الدّين خليل: مؤشّرات حول الحضارة الإسلامية، دار الصّحوة للنّشر والتّوزيع، (د.ط)، (د.ت)، ص: 79.

3 - محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص:204-205.

وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ،وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ * .

فهذه الآيات تعرض بعض مظاهر الخلق في الحياة، من كيفية الخلق، و إخراج الحيّ من الميّت، والميّت من الحيّ؛ ونجد السّمة المشتركة بين هذه الحقائق هي الجمال.إنّه معجزة الخالق في تزيين الحياة.وهي الظّاهرة الّتي يجب أن تقتدي في صنع الحضارات[1].

فالجمال هو الإطار الّذي تتكوّن فيه أيّة حضارة "لأنّ الجمال هو وجه الوطن في العالم،فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الّذي ندين لهم بنفس الاحترام "[2].

ومنه نقول : إنّ الجمال في خلق الله للكون وإبداعه له، وحسن خلق الله للإنسان دلائل على أهمّية هذا العنصر (الجمال) في تسيير الحياة، فالجمال يلعب دورا أساسيّا في بعث الرّاحة والسّعادة في النّفوس، فطبيعة الإنسان تميل إلى الشّيء الجميل ونبذ ما هو قبيح .ومن هذه الرّاحة يكون الإنسان مؤهّلا وله قابليّة للاكتشاف والعمل والإبداع، ونحن ندرك يقينا أنّ الإبداع أساس بناء الحضارات وركيزة التّقدم و الازدهار.

*سورة الأنعام:الآيات[95-98].

1- سيّد قطب: في ظلال القرآن،ج2، ص:1153.

2 - مالك بن نبيّ: شروط النّهضة، ص: 92.

المبحث الثاني: عوامل سقوط الحضارة من القرآن

إنّ القرآن دستور حياة تضمّن بالإضافة إلى العوامل الّتي تؤسّس الحضارات إشارة إلى الأسباب الّتي تؤدّي إلى انهيار الحضارة وسقوطها.

وما يقصد بالسّقوط الحضاريّ هو الانهيار الدّاخليّ للمجتمعات، وذهاب قوّة الأمم وعزّتها، وذلك عندما تذوب في غيرها وتنمحي شخصيتها المعنويّة و الرّوحيّة[1].

و التّاريخ يثبت أنّ الأمم ما انتصرت أو انهزمت إلاّ بفعل العوامل والأسباب الدّاخليّة، وما العوامل الخارجيّة إلا متمّمة ومكمّلة لها. وهذا ما سمّاه **مالك بن نبي** " **القابليّة لاستعمار**"، ويراه **ابن نبي** العامل الأكبر في انهزام المسلمين في العصر الحديث[2].

إنّ ظاهرة التّدهور الحضاريّ تتشكّل ببطء وعلى مكث، وتسهم في صنعها عوامل ومؤثّرات شتّى: عقديّة وسياسيّة وإداريّة واقتصاديّة واجتماعيّة وأخلاقيّة.

فكلّ حضارة عرضة لتحديّات التّدهور والانهيار بمجرّد غياب الفعل الحضاريّ أو فقدانها الحدّ الأدنى من الفعالية، وليس هناك حصانة إلهيّة مسبقة للحضارة بسبب نزوعها الدّيني أو الإيمانيّ أو بسبب أمر آخر، لذا فإن استمرارية الحضارة رهن بما يصنعه أبناؤها أنفسهم من خلال جملة من الضّوابط والمعايير الّتي إذا أسيء التّعامل معها انهارت الحضارة وعرفت الانحراف والتّدهور[3].

لأنّ من سنّة الله في البشر أنّ كلّ ما يصيبهم من بلاء وأذى في الأنفس والأبدان، وشؤون الملك والسّلطان، إنّما هي آثار للأعمال ونتائج السّلوك الفاسد مع وجود عفو الله الكثير ،كما قال تعالى :﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** ﴾* .وتبقى سنة الله ثابتة تعمل عملها في حركة التّاريخ، والله يتّخذ من الظّالمين والمترفين وأهل الشّرك والضّلال، وغيرهم من

1- محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص: 211.
2-انظر مالك بن نبي: شروط النّهضة.
3- عماد الدّين خليل : مدخل إلى الحضارة الإسلامية، المركز الثقافي العربي المغرب، ط 1، 1426هـ، 2005م ،ص :149- 158.
* سورة الشّورى: الاية 30.

ذاته دليل على أنّ الأمة قد تخلخل بناؤها وسارت في طريق الانحلال[1]. ومن العوامل الّتي تؤدّي إلى تخلّف الحضارات الخلاف على الحكم والنّزاع بين الأطراف الحاكمة، وخير مثال ما حدث مع المسلمين في عهد خلافة علي بن أبي طالب لمّا انتقل مقر الخلافة من مهبط الوحي إلى الكوفة ،فهذا الأمر خلق في نفوس المسلمين بعامّتهم ارتباكا روحيّا ، لأنّ مقرّ الخلافة الأوّل لم يكن مجرّد عاصمة سياسيّة للمسلمين، وإنّما كانت عاصمة دينيّة لهم أيضا ،كما خلق توتّرا عاليا زاد في توسيع فجوة الصّراع بين أصحاب السّنة وأنصار عليّ من الشّيعة، وبعد ذلك انتقلت الخلافة إلى دمشق فزاد اتّساع فجوة الصّراع بين المسلمين، وممّا زاد الطّين بلّة هو تركيز الملوك الأمويّين في تسيير أمور المسلمين على العنصر العربيّ عامّة وعلى بني أميّة خاصّة، وتخلّيهم عن الموالي وأهل الذّمة ممّا أدّى إلى ظهور صراع حادّ شارك فيه بعض زعماء الهاشميّين الرّافضين للحكم الأمويّ بمساعدة الموالي وأهل الذّمة النّاقمين على السّياسة الأمويّة. وليس هذا ما وقع فقط بل ازدادت الأمور سوءا لمّا أسند العبّاسيّون ومن تبعهم من الخلفاء المتأخّرين بعض المناصب العليا في الدّولة الإسلامية للموالي وأهل الذّمة، وتركوا لهم الحرّية التّامّة في التّصرف في شؤون المسلمين وتسييرها ممّا أدّى إلى نشوب صراعات وظهور القبليّة والشّعوبيّة والزّندقة[2].فتولّي رجال ليسوا أهلا لمهمّات تسيير شؤون الدّولة، وانغماسهم في ملذّات الدّنيا، وسوء تنظيم أمور الأمّة، كذا ظهور النّزاع، والخلاف داخل المجتمع كلّها عوامل تفسد السّياسة وبالتّالي تُدهور أوضاع الحضارة.

2- التدهور الاجتماعيّ:

إن المجتمع يحتاج إلى أخلاق عالية وصفات نبيلة لكي يرقى ويتطوّر، فإذا ما تزعزعت أخلاقه وسادت فيه الفواحش و المنكرات تفكّك وانحطّت قيمته وتراجعت حضارته — ومن بين السّلوكيات الفاسدة التي إذا ما عرفها مجتمع فإنّه لن يعرف الاستقرار ولا الاستمرار **"الظّلم"**. فهو من أكثر

1- محمد هيشور:سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها،ص:250.نقلا عن نعمان عبد الرّزاق السّامرائي:في التّفسير الإسلاميّ للتّاريخ،ص:200.

2- شايف عكاشة: الحضارة العربية الإسلامية بين التّطوّر والتّخلّف، ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر، (د.ط)، 1994م، ص: 120-121.

العوامل الّتي تؤدّي إلى سقوط الحضارات، وله مفهوم شامل وعريض يؤدّي إلى فقد التّوازن في كافّة مجالات الحياة.

*وأصل الظّلم في اللّغة هو وضع الشّيء في غير وضعه، وهو الميل عن القصد[1]. والظّلم أنواع فقد يكون الظّلم بمعنى الشّرك كقوله تعالى :﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾*، وكقوله تعالى في الآية الثّانية والثّمانين من سورة الأنعام في حديثه عن المؤمنين :﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾*. والظّلم هنا بمعنى الشّرك.

ولقد كان الظّلم أوّل ما حذّر منه آدم زوجه. فقال تعالى:﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾*. والإهلاك بسبب الظّلم سنّة من سنن الله في إهلاك الأجيال، قال تعالى:﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾*. فربّنا سبحانه وتعالى من عدله أنّه لا يأخذ القرى بظلم إذا كان أهلها مصلحين. ولمّا كانت القلّة المستضعفة على الصّلاح والعدل أنجاها الله، وأهلك الكثيرة الظّالمة المترفة.

وهذه الآية واحدة من جملة الآيات الّتي تكشف سنّة الله في الأمم والحضارات الّتي حلّ بها عذاب الله فأهلكها هلاك استئصال أو هلاك انحلال واختلال[2].

وكثيرة هي القرى التي أهلكها الظّلم، فأصبحت عروشها – سقوفها- ساقطة وآبارها معطّلة فكانت منظرا موحشا كئيبا مؤثّرا في المارّين، داعيا إلى التّأمّل في الصّور الخالية والمنجزات الذّاهبة قال تعالى:﴿ **فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ،فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ**

1- ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ظ .ل.م) ، مج9،ص:150.
*- سورة لقمان: الآية 13 .
*سورة الأنعام :الآية 8.
*سورة البقرة:الآية15
*سورة هود:الآيتين[117-118]
2- سيّد قطب: في ظلال القرآن، ج4، ص:1933.

وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾*.

أي فكم من أهالي قرية أهلكناهم بسبب الظّلم وهو الشّرك والكفر، وهذه بقاياهم وآثارهم على الأرض تدلّ على ما وصلوا إليه من تقدّم وعمران[1].

و لقد ظلّت أخبار مصارع الغابرين وعواقب الظّالمين على مرّ العصور شاخصة في أذهان أولي الألباب، تتحدّث بالعبر وتنطق بالعظات، وهي أبلغ من دموع الباكين، ولكن أين العقول المتدبّرة والقلوب المتّعظة؟ وسنّة الله سائرة لا تتبدّل ولا تتحوّل، وما زال الظّالمون في كلّ زمان يطلبون العذاب والهلاك بلسان القول أو الحال[2].

وقد جعلت الله قرى أهلكت بسبب الظّلم وهو الكفر بالنّعم مثلا في التّعذيب وحلول بأس الله، فقال تعالى:﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾*.**

وتفسير " ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة..." أي جعل الله القرية الّتي هذا حالها، مثلا لكلّ قوم في كلّ زمان ومكان أنعم الله عليهم نعمه الّتي لا تعدّ ولا تحصى كنعمة الأمن والاطمئنان وكثرة الأموال ورغد العيش والرّزق، فكفروا وتولّوا عن الحقّ، فأنزل الله عليهم نقمه.ويدخل في هذا المثل أو التّحذير أهل مكّة وهم أوّل المخاطبين بالقرآن، ولأنّ هذه القرية كانت آمنة لا يزعجها خوف ولا تقلقها قلّة عيش، فأذاقها الله بعد ذلك لباس الجوع والخوف، أي زرع في أهلها القلق و الخوف، ونزع منها الأمن والاستقرار، وأبدلها السيّئة بالحسنة بسبب ما صنع أهلها من الاعتقاد الباطل والعمل الفاسد، هذه القرية لم تحدّد في القرآن بالاسم أو حتّى بالإشارة[3].

ومن أنواع الظّلم الأخرى ظلم النّفس ومنه النّفاق الّذي إذا تولّى أهله عاثوا في الأرض فسادا، وإذا مُلّكوا تجبّروا ورفضوا كلّ نصيحة، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**

---

*سورة الحج:الآيتين[45-46].
1- القاسمي: محاسن التأويل،ج12،ص:4348.
2- سيّد قطب: في ظلال القرآن، ج4 ،ص:3439.
*سورة النّحل:الآيتين [112-113].
3-القاسمي:محاسن لتأويل، ج10،ص:3867-3869.

**وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾*.

ومعنى الآيات: أنّ الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر عليها، فيهلك الحرث والنّسل. ولأنّ النّفاق يؤدّي إلى تفريق الكلمة ووقوع القتال بين النّاس، فيهلك الخلق من البشر وغيره[1] ﴿ **وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ**﴾ .

والله سبحانه وتعالى هدّد المنافقين بكشف أسرارهم وخططهم للمؤمنين، فقال تعالى :﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** ﴾*.

ومن نماذج الحضارات التي أخذها الله بظلم أهلها وطغيانهم " الحضارة الفرعونية"؛ فقد تحدّث القرآن عن قصّة آل فرعون، وذلك أنّ أهل مصر لمّا وصلوا إلى قمّة الرّقيّ، أخلدوا إلى الظّلم والعدوان، فادّعى كبيرهم فرعون أنّه ربّهم الأعلى وجعل يعذّب وينتقم من أمّة ضعيفة- بني إسرائيل- استوطنت أرض مصر أيّام النّبيّ يوسف عليه السلام، فلمّا بلغ عدوان فرعون والأمّة المصريّة نهايته، قضت مشيئة الله أنّ تضعف شوكتهم وترفع تلك الأمّة المستضعفة -بني إسرائيل- التّي كانوا يحتقرونها[2].

فحضارة فرعون كانت من أشدّ الأمم قوّة، فقال تعالى:﴿**كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا** ﴾*.ولكنّ مصيرها كان التّدهور والانحطاط، لأنّها انخدعت بما وجدت نفسها فيه من حالة الإقبال وغرّتها النعم وفتنتها الرّفاهية، فتكبّروا وتجبّروا لما استتبّ لهم من القوّة والغلبة ، فأخذوا يظلمون أنفسهم بما يرتكبون من سيئات الأعمال ﴿**وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا**

---

*سورة البقرة:الآيات[204- 206].

1-القرطبي:أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر:الجامع لأحكام القران والمبين لما تضمنه من السنة و اي القران،ج3،تح:عبد الله بن عبد المحسن التركي،مؤسسة لرسالة،بيروت، لبنان،ط1، 1427ه،2006م،ص:385-386.

*سورة محمّد:الآيتين [29-30].

2- أبو الأعلى المودودي: نحن والحضارة الغربية، الدّار السّعودية للنّشر والتّوزيع، ط2، 1407هـ، 1987م، ص :78

*سورة الرّوم :الاية9.

﴿أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾*. ولقد أمهلهم الله على رغم تمرّدهم وعصيانهم ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾*. و لم تكن هذه المهلة يسيرة، بل أمهلت بعض الأمم مدّة قرون متوالية ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾*، وبعد أن يمهل الله القرى حتّى تتوب وتعود إلى رشدها يأتي العذاب والتّدمير والسّقوط.

وإذا كان الظّلم من أهمّ أسباب التّدهور الاجتماعيّ التّي تمسّ الحضارات وهو مؤذّن بخراب العمران كما ذكر **ابن خلدون** ،فإنّنا نجد عوامل أخرى اجتماعيّة توثّر في مسار الحضارة سلبا .ونحن نعلم يقينا أنّ الأخلاق أهمّ مقوّم للمجتمع فإذا غابت عن المجتمع تدهورت الحضارة؛ لأنّ القيم الخلقيّة تمثّل مراكز الثّقل في حضارات الأمم، وشحنات الدّفع في مسيراتها[1]. فالأخلاق أساس بناء الأمم والحضارات.

وإنّ أيّ مجتمع قد فقد وعيه الحضاري القائم على خلفية خلقيّة متينة تعصمه من مغبّة الوقوع بين فكّي الإفراط والتّفريط ينحرف لا محالة عن الخطّ التّصاعديّ في المسيرة الحضاريّة وينقلب به الأمر فيعود على أعقابه نازلاً نحو الحضيض[2].

وقد أشار الله تعالى في كتابه العزيز إلى أثر المعاصي والمنكرات على الأمم والمجتمعات. فإن شاعت الفاحشة وظهرت المعاصي مع سكوت النّاس عنها هلك المجتمع، ذلك أنّ المعصية إذا صدرت من فرد وأتى بها خفية كمن ابتلى بشيء فتستّر كان الضّرر قاصرا عليه ولا يتعدّاه إلى غيره، أمّا إذا أصبح المنحرفون يعلنون انحرافهم ويتظاهرن بفسوقهم وعصيانهم ولم يجدوا من يأخذ على أيديهم ويردّهم عن عصيانهم عَمَّ ضرر الفاحشة كافّة أنحاء المجتمع، ولم يبق وبالها مقصورا على مرتكبيها.

---

*سورة هود: الآية116.

*سورة الحج:الآية48.

*سورة الحج:الآية47.

1- عماد الدّين خليل: مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص:170.

2- شايف عكاشة: الحضارة العربية الإسلامية بين التطوّر والتخلّف، ص:124.

ووردت قصص القرآن بذلك كقوله تعالى:﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾*.

فمعنى قوله تعالى (اتّقوا) هو خطاب المؤمنين عامّة .و (فتنة)المراد بها هنا العذاب الدّنيوي كالقحط والغلاء، وتسلّط الظّلمة،(لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)أي تتعدّى الظّالم وتصيب الصّالح والطّالح، ولا تختصّ إصابتها بمن يباشر الظّلم منكم، واتّقاء الفتنة يكون بالكفّ عن الإسراف في الذّنوب والأخذ على يد المجاهرين بها[1].

ومن أكبر الأمم الّتي بالغت في الفاحشة ومارستها ليلا ونهارا، فكتب الله لها الدّمار والهلاك بسببها قوم لوط **عليه السّلام**. قال تعالى:﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطَعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾*.

ومعنى هذه الآيات: هو أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السّلام قال للملائكة بعد أن ذهب عنهم الرّوع ما أمركم الخطير الذّي لأجله أرسلتم؟ فأجابوه أنّهم مرسلون إلى قوم لوط لإهلاكهم، وأنّ امرأته ستهلك مع الكافرين، فلم يعرفهم سيّدنا لوط لمّا رآهم وسأل عن الأمر الّذي جاءوه من أجله، فبيّنوا له أنّهم جاؤوا بالعذاب لقومه الّذين كانوا يكذّبونه، فأمرت الملائكة سيّدنا لوط بالذّهاب بأهله ليلا، وأن يكون على آثارهم ولا ينظر منهم أحد وراءه حتّى لا يرى من الهول ما لا يطيقه، وجاء أهل

---

*سورة الأنفال:الآية25.

1- محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها،ص 24، نقلا عن عبد الله التليدي: أسباب هلاك الأمم وسنّة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، ص:77.

*سورة الحجر:الآيات[57 75].

مدينة لوط سيّدنا لوط يستبشرون بتلك الضّيافة طمعا في الضّيوف ولمّا أصرّ القوم على فعلتهم الشّنيعة،ولم يسمعوا النّصيحة أسمعهم الله الصّيحة المهلكة لهم- صيحة العذاب- وقت شروق الشّمس، صيحة حرّكت الأرض، وهي آية وعبرة للمؤمنين[1].

ودائما نجد في القرآن الحديث عن لوط **عليه السّلام** بعد الحديث عن إبراهيم **عليه السّلام**، ذلك لمعاصرته ومجاورته له ولرابطة القرابة والنّسب زيادة على ذلك لرابطة العقيدة والانخراط في سلك النّبوّة، فسيّدنا لوط **عليه السّلام** هو ابن أخ إبراهيم الخليل **عليه السّلام**، وقد آمن مع عمّه إبراهيم، وهاجر معه إلى الشّام وأخذ فلسطين موطنا له، ثمّ نزح إلى وادي الأردن وسكن مدينة **(سدوم)** فبعثه الله إلى أهلها وإلى من جاورها نبيّا، فدعاهم إلى الإيمان، وترك الفاحشة والمنكرات[2].

ومن أسباب الهلاك وسقوط الحضارات هو النّقص والتّطفيف في الميزان والكيل، ومن الأقوام الذين مارسوا هذه الخطايا أهل مدين قوم شعيب **عليه السّلام** فاستحقّوا غضب الله وسخطه، وهذا ما أذهب مجدهم، وأباد حضارتهم، والقوم إلى جانب هذا كانوا على شرك بالله فدعاهم شعيب إلى إفراد الله بالعبادة وتوحيده بالرّبوبية والتّوبة والاستغفار من كلّ خطيئة.قال تعالى :﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ، قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ،وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ،وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ**

1- القاسمي:محاسن التّأويل،ج10،ص: 3761.
2- سيّد قطب: في ظلال القرآن ، ج3، ص:1316.

وَدُودٌ ،قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ،قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ،وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ، ولَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾* .

فهذه الآيات تعدّد الخطايا والمنكرات الّتي انفرد بها أهل مدين من نقص الكيل والميزان، بخس النّاس أشياءهم، الإعثاء في الأرض فسادا. ولّما جاهروا بالمعاصي أرسل الله إليهم سيّدنا شعيبا يدعوهم إلى عبادة الله واستغفاره، وترك تلك المفاسد الّتي عرفوا بها، فنهاهم شعيب عن ذلك. ولقد تعجّب القوم ممّا نهاهم عنه، ولّما أصرّ سيّدنا شعيب في دعوة القوم هدّدوه بالرّجم والقتل فأخبرهم شعيب **عليه السّلام** أنّه سيسير على طريق الإسلام ويسيروا على طريق الضّلال، ولابّد أن تكون نهاية واحدة لهذا الإجرام والظّلم، وكانت نهايتهم الموت بالصّيحة و نجّى الله سيّدنا شعيب ومن اتّبعه[1].

إذن لم تنفع دعوة سيّدنا شعيب قومه الّذين أصرّوا على المعصية والطّغيان وارتكاب الفواحش، فأخذهم الله بذنوبهم وكان بذلك نهاية حضارتهم، وتدمير أمّتهم.

وهكذا عندما تفرغ النّفوس من العقيدة الصّحيحة والقيم الرّوحيّة الرّفيعة، فإنّ العقول لا تعقل، و القلوب لا تتّعظ، وتتعطّل الحواسّ عن التّدبّر والإدراك،فتأتي لحظة المفاصلة ونقط المفارقة ، وسيسدل على حياة تلك الأمّة الضّالة، لتصير جزءا من التّاريخ[2].

ومنه نستخلص أنّ الأمّة إذا شاعت فيها الفاحشة وطغى قومها، وغابت عن حياة أفرادها الأخلاق ،تزعزعت أسس بنائها وبدأت حضارتها في التّدهور وقد تصل إلى السّقوط إذا لم يحدث

---

*- سورة هود: الآيات [84 -95].

1- القاسمي: محاسن التأويل،ج9،ص:3475، 3482.

2- سيّد قطب: في ظلال القرآن، ج4، ص:1905.

تغيير في أهلها أوّلا ليكون تغيير الأمور الأخرى ميسّرا﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾*.

وما وقع للأمم والقرى والحضارات السّابقة لهو دليل قاطع على أثر الفساد الاجتماعي السّلبيّ وعلى مسار الحضارة، ولذلك لابدّ من أخذ مصير تلك الأمم ومآلها السّيّء الّذي آلت إليه عبرة وعظة لتصحّح النّفوس وتطهّر القلوب وتُنقّى المجتمعات من المعاصي والفساد.

وخلاصة للمبحث الثّاني نقول:إنّ القرآن تضمّن سرّ نجاح الأمم و اشتمل على مفاتيح حضارتها، كما أنّه أشار إلى العوامل والأسباب المؤديّة إلى إسقاط صروح الحضارات، وإهلاك الأقوام، فإذا غابت العقيدة عن نفوس المجتمعات وطغى الشّرك والإلحاد ،فلا ننتظر حضارة ولا يرجى لأهلها الخير والصّلاح، وإنْ حكم الدّول رجال ليسوا أهلا للمهمّات الملقاة على عواتقهم ظهرت النّزاعات وفشى الاضطراب وبالتّالي تدهورت الحضارة، أمّا الأخلاق فلا قيام لحضارة بدونها ولا استمرارية لها إن فُقدت؛ لأنّ القيم الخلقية أساس في دفع الحضارات وركيزة في بنائها. فإذا ما شاع الفساد وكثرت المعاصي والمنكرات وعمّت الفاحشة فهيهات للأمم أن تؤسّس حضارة، وهيهات لمن امتلك حضارة أن ينعم بها لأنّها لن تعرف الاستمرار بل مصيرها سيكون الهلاك والدّمار حتّى تعرف الأمم الإصلاح والتّغيير.

*سورة الرّعد:الآية11.

الفصل الثالث:الحضارة في فهم البوطي

-المبحث الأوّل:عناصر الحضارة

-المبحث الثاني:عوامل تحجّر الحضارة الإسلاميّة وازدهار الحضارة الغربيّة

-المبحث الثالث: كيفية انبعاث الحضارة الإسلاميّة من جديد

إنّ موضوع الحضارة شغل بال العديد من العلماء، فألّفوا فيه كتبا وأعدّوا بحوثا تعتبر مرجعا لكلّ باحث. ومن بين الذّين أجادوا في الكتابة عن الحضارة، وأبدعوا لمّا تناولوها، وقدّموا رؤية تنطلق من القرآن وترتكز عليه في بناء حضارة إنسانية مثلى لا تزول ولا تتزعزع مكانتها، **"محمّد سعيد رمضان البوطي"**.

لقد تناول البوطي الحضارة من جوانبها المختلفة وأبان عن مرتكزاتها وحدّد العناصر الّتي لا تقوم الحضارة بدونها، وقبل أن نخوض في الحديث عن رؤيته للحضارة وما هو المنهج الّذي قصده البوطي في كتبه حتّى تبنى حضارة إنسانية من القرآن؟ لا بأس أن نعرّف به في إيجاز.

المبحث الأول: عناصر الحضارة

لقد تناول البوطي الحضارة بالدّراسة انطلاقا من القرآن الكريم، فحدّد لنا عناصر ترتكز عليها ولا قيام لها بدونها، والملاحظ هو أنّ هذه العناصر استند عليها البوطي في تعريفه للحضارة، فهي في نظره:

" ثمرة التّفاعل بين الإنسان والكون والحياة"، إذ تقوم الحضارة على علاقة متبادلة بين الإنسان وما يحيط به في هذه الحياة. وليست الحضارة الإنسانية أكثر من ثمار جهود التّعاون الإنسانيّ في نطاق الاستفادة من ذخر الأرض وخيرها[1].

فالإنسان بجهوده الّتي يبذلها من أجل استغلال المكوّنات الّتي من حوله، وفي سبيل تحقيق لوازمه واحتياجاته الّتي توفّر له أسباب العيش الكريم والسّعادة في الحياة يحقّق حضارة.

ومن خلال تعريف الحضارة الّذي سبق ذكره نستخلص العناصر الأساسية الّتي تبنى بواسطتها أيّ حضارة مثلى، وهي كالآتي: **الإنسان، الحياة، الكون** *.

1- ***الإنسان:***

إنّ الحضارة إنتاج الإنسان صاحب الفكر والوجدان والإدارة. وهو محور العمارة الكونية في هذه الحياة الدّنيا، وذلك بما أوتي من نعم أجّلها نعمتي الفكر والبصيرة، أمّا ما عداه ممّا يوجد حوله، فأسباب مسيّرة نثرت له على قارعة الطّريق، ليراها فيختار منها ويهتدي إلى عظيم جدواها، ويستخدمها في بلوغ أمانيه وغاياته[2].

و إذا أردنا أن نعرّف الإنسان فإنّنا نجد معناه في اللّغة يتحقق أمرين اثنين هما:

1- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن،دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1402هـ، 1982م، ص12، 19.

*- هذه العناصر تقترب كثيرا مع ما ذكره مالك بن نبي في كتبه" مثلا الحضارة"، فهو الآخر جعل للحضارة ثلاثة عناصر: الإنسان، التراب، الزّمن، والملاحظ هو أن الاختلاف في التّسميات فقط أمّا المقصود فواحد ومن هنا يمكن القول أنّ البوطي تأثّر بنظرية ابن نبي الحضارية (انظر سلسلة مشكلات الحضارة لمالك بن نبي). ولعلّ هذه التّسميات الّتي اختارها البوطي تعود إلى كونه فقيها .

2-محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانيّة في القرآن، ص21 .

اسم ومضمون[1].

-فالأمر الأوّل: ذكر صاحب " **تاج العروس**" أنّ الإنسان معروف، ويجمع النّاس مذّكرا، وقد يؤنّث على معنى القبيلة والطّائفة، وله خمسة معان، أحدهما: الأنملة كما في قول " ابن سيدة":

أَشَارَتْ الإِنْسَانَ بِإِنْسَانِ كَفِّهَا لِتَقْتُلَ إِنْسَاناً بِإِنْسَانِ عَيْنِهَا

-وثانيها: ظّل الإنسان، ثالثها: رأس الجبل، رابعها: الأرض الّتي لم تزرع، وخامسها: المثال الّذي يرى في سواد العين ويقال له: إنسان العين.

والإنسان (بالكسر) البشر، الواحد إنسيّ لأنّه يُرى، والجمع أناس، وقيل :هو جمع إنسان، ويجمع الإنس على أناس مثل أجل وآجال.

والأناس (بالضّمّ) لغة في النّاس قال سيبويه: الأصل في النّاس، الأناس فخفّف فجعلوا الألف والكلام عوضا عن الهمزة، وقالوا: الأناس[2].

فالإنسان لغة المقصود به البشر.

-والأمر الثّاني: الإنسان المضمون، قد ذكر "**عادل العوا**" في كتابه " **الإنسان ذلك المعلوم**" " بأنّ البحث في مضمون الإنسان قد يشتمل على وجهتي نظر: سكونية تتصّل بما نسمّيه بنية الإنسان، والإنسان في الفكر العربي جسد وروح، وحركيّة تتصّل بما نسمّيه حياة الإنسان أو صيرورته من الولادة فالنّمو فالموت".

فالإنسان هو ذلك الكائن الحيّ الذّي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، وصوّره فأحسن صورته، على كثير من المخلوقات[3] .

وإذا كان للإنسان قيمة كبيرة اليوم فما كان له أن يحظى بها لولا القرآن الكريم، هذا الأخير الذّي حوّل الإنسان من نكرة تنظر إليه الحضارات القائمة آنذاك كالحضارة البيزنطينية والفارسية،

1- حسن رمضان فحلة:مقوّمات الحضارة في الإسلام، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 1410هـ، 1989م، ص:17.
2-الزّبيدي،محب الدّين أبو الفيض السيد محمد مرتضى:تاج العروس من جواهر القاموس،مادة (أنس)،ج4، المطبعة الخيرية،مصر،ط1، 1406ه، ص:98-99.
3-المرجع السّابق ، ص:18.

إلى قوّة مركزية مهابه الجانب[1]. وقد تكلّم القرآن الكريم عن الإنسان من حيث نشأته الأولى ومجيئه إلى الأرض ورسالته فيها وانفرد القرآن هنا بأمرين أساسين هما:

أوّلهما: بيان الرّسالة الخاصة الفريدة للإنسان، وهي انّه ليس ذلك المخلوق الآثم المطرود والمعاقب بالحياة على الأرض كما في التّراث اليهوديّ والمسيحيّ، بل هو الإنسان الكريم الذّي كرّمه الله وجعله ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وأعدّه لرسالته في الأرض، فعلّمه وزوّده بالعقل والقدرة على الاختيار والطّموح، ومكّنه من الاجتهاد مع إمكان الخطأ وإدراكه وتصحيحه، ثمّ جاء إلى الأرض لكي يكون خليفة في الأرض فيعمّرها باسم خالقه وفي ضوء إرشاده، وينهض بواجبات الخلافة الّتي تتمحور حول الإيمان بوجود الخالق وبالرسالة الّتي وضعها على كاهل الإنسان والإيمان بكلّ حق.

ثانيهما: أنّ القرآن بيّن حقيقة الإنسان، وهي أنّ فيه نفحة إلهية﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ بما يعرف الله فيحبّه ويطيعه، كما بيّن مكان الإنسان في نظام هذا العالم الماديّ، وهو أنّه سيّد الطّبيعة وأنّ كلّ ما في الكون بسمائه وأرضه مسخّر له ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ،فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُسَاجِدِينَ﴾* وذلك كي يؤدّي رسالته[2].

وقد أسّست نظريات، وقدّمت آراء مختلفة حول الإنسان من طرف حكماء وفلاسفة وشعراء وعلماء، وهي تنظر للإنسان نظرتين متباينتين، نظرة تعتبر الإنسان خيرا، والأخرى تعدّه شرّا وجاء بالصّدفة، فمثلا : الفيلسوف اليوناني **أفلاطون** يعتقد أنّ نفس الإنسان جاءت من عالم آخر، بسبب خطيئة، فسجنت في البدن، ويجب أن تعمل على التخلص من سجنها عن طريق الفلسفة.

1- الإنسان و الفاعلية، مجلّة حراء، جامعة شعيب الدّكالي، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية جديدة، المغرب، العدد14، 2008م، ص:6 .

*- سورة التين: الآية 40.

*سورة [illegible]الآيات [28- 29].

*سورة الجاثية:الآية23.

2- محمد عبد الهادي أبو ريدة: الإسلام والحضارة،تر:فيصل بدير عون، ج3، ص165.

ومن الشّعراء الذّين كانت لهم نظرة تشاؤمية حول الإنسان الشّاعر **أبو العلاء المعرّيّ (363ه-449ه)**، فإنّه قد عبّر في الكثير من شعره عن نفائس بني آدم وشبّه الإنسان بالنّسبة لأخيه الإنسان بسبع وذئب، كما عبّر عن مآسي الحياة والموت، وأنّ الإنسان أمام نعم الحياة ونصرّفها بالإنسان، فلا نستطيع التّمييز بين ما يشقي الإنسان حقيقة وما يسعده. وعلى العكس من هذه النّظرة نجد فلاسفة مثاليين :منهم من يشيد بما في الإنسان من الأنس الطبيعي بأخيه الإنسان، ويؤكّد حاجة الإنسان إلى أخيه الإنسان، وهذا يوجب على النّاس أن يتجاوبوا ويتعاونوا ليسعدوا جميعا، وهذا رأى **مسكّويه(320ه-421ه)**. ومن الشّعراء الّذين تحمّسوا للشّعور الإنسانيّ النبيل مثلا، الشّاعر الألماني **شيللر(1757م-1805م)** الّذي يرى أنّ الإنسان خلق لكي يكون على الأرض ملكا سعيدا بفضل مشاعر التعاطف بين الناس، فمن عاش في هذه المشاعر فهو السعيد، ومن عاش في القطيعة فهو الشّقيّ البائس[1].

وإذا كانت هذه النّظريات متباينة في رؤيتها للإنسان فإنّ خير من نظر للإنسان وأعلى من شأنه هو القرآن الكريم، فقد كرّم الله الإنسان ،ووهبه نعما كثيرة لا تعدّ ولا تحصى ،وفضّله على سائر المخلوقات، ولكن بالمقابل كلّفه بمهمّات وأسند إليه مسؤولية عظمى ألا وهي عمارة الأرض.

وهذه الوظيفة الّتي حملها القران للإنسان تشمل فيما تشمل إقامة مجتمع إنساني سليم، وإشادة حضارة إنسانيّة شاملة، ليكون الإنسان بذلك مظهرا لعدالة الله تعالى وحكمه في الأرض، ولكن لا بالقسر والإجبار بل بالتّعليم والاختيار[2].

ونهوض الإنسان بهذه المهمّة، سوقّف على تسامي نفسه فوق ذاتها، وعلى تنقّيها من شتّى الآفات الاجتماعية، وهذا ما رسمه الله له في كتابه العزيز، فقد بيّن الله للإنسان سبل رياضة نفسية،

1-المرجع نفسه،ص:165.

2-محمد سعد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص: 27.

ودورات تربوية تتكفّل بتصفية النّفس من تلك الشّوائب، وتهيئته للنّهوض بواجبه المقدّس على أحسن وجه.

فالإنسان في التّصوّر الإسلامي هو سيّد هذه الارض، بخلافته فيها ، وكلّ ما فيها مسخّر له بقدرة الله تعالى، وقد أوتي إمكان العلم بشؤونها هبة من الله، والاستمتاع بطيّباتها وجمالها، نعمة منه خالصة. وليست الأرض وحدها بل كلّ ما فيها من أحياء وأشياء، وفوق كلّ ذلك السّموات مهيّأة لمساعدة الإنسان في خلافته في الأرض[1] يقول تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾*.

ويقول أيضا:﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ،وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾*.

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ الإنسان نحوا من ثمانين مرّة، فتحدّث عن خلقة الإنسان:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾* .

وتحدّث عن نفسيّة الإنسان:﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾*.

وكلمة النّاس الدّالة على الجنس البشري يتكرّر استعمالها نحوا من مائة وأربعين مرّة، كثيرا منها ورد خطابا للبشر عموما، كقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾*.

وهذه الكلمة ـ أي كلمة النّاس ـ استعملت في القرآن الكريم بمعنى الجنس البشريّ عموما، لا بمعنى المسلمين أو العرب بدليل قوله تعالى في الكثير من الآيات. مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

1- سيّد قطب: الإسلام ومشكلات العصر، دار الشروق، مصر، ط11، 1412هـ، 1992م، ص24.

*- سورة البقرة: الآية 29.

*سورة [illegible] 12 ـ 13.

*سورة الحجر:الآية26.

*سورة إبراهيم:الآية34.

*سورة الحجرات:الأية13.

النَّاسِ ﴾*، وقوله عزّ وجلّ:﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾*. وقد استعمل القرآن كذلك كلمة **البشر**، للدّلالة على الجنس الإنسانيّ الواحد، وكان ذلك في أكثر من خمس وثلاثين مرّة، كقوله تعالى.﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ﴾*.

والقرآن عموما عندما يتحدّث عن الإنسان، فإنّه يتحدّث عنه حديثا يملأ الصّدر بدفء الأمل، وسعة الرّجاء، ويفتح عليه صفحات مشرقة للوجود تغري الإنسان بالوقوف عند كلّ موجود.

فالإنسان في الإسلام، ذلك المخلوق الّذي يملئ كتابه بمشاعر العزّة،والقيادة والقوّة والاستفادة من كلّ ما في الأرض، من قوى يسخّرها لسلطانه، ويقوم بها على خلافة الله في الأرض، مستصحبا في ذلك غفله[1].

فالمصطلحات عديدة غير أنّ المقصود منها هو ذلك المخلوق المكرّم على سائر الكائنات. إنّه الإنسان الذي فضله الله على ما عداه في هذا الكون، وأناط به مهمّة عمارة الأرض وخلافتها، وبناء حضارة تقوم وترتكز على جميع القيم الّتي حواها القرآن.

ولم يترك الله الإنسان بدون مرشد ولا معين في هذه الأرض وإنّما جهزّه بحوّاس لا تقلّ قيمة الحاسّة منها عن الأخرى، ومنحه صفات عديدة هي شرف كبير، كما أنّها أسلحة ذات حدّين إذا استعمل أحدهما جاء بالتّنظيم العظيم للكون وبالخير الوفير للإنسان، وإن استعمل الحدّ الآخر أو استعملا معا جاء ذلك بالشّر الوبيل والفوضى الهائلة، وأورث الإنسانية شقاء لا آخر له.

وهذه الأسلحة سمّاها الله بالأمانة في قوله تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾*.

---

*سورة غافر:الآية61.
*سورة آل عمران:الآية140.
*سورة الحجر:الآية28.
[1]- أحمد عبد الرحيم السّايح :طلسمة الحضارة الإسلامية ،ص .17، 21.
*سورة الأحزاب:الآية72.

ومصدر هذه الصّفات بحسب البوطي أنّها في حقيقتها ليست إلا صفات الربوبيّة، فالعلم والقوّة والسّلطان والتّملّك والجبروت كلّها مقوّمات الألوهية وصفات للرّب عزّ وجلّ[1].

فالبوطي يركزّ في كتبه على مصطلح الرّبوبية لأنّ الإنسان في نظرة قد يتّصف بخصال ويمتاز بصفات نابعة من عند الله تعالى، فيكون بذلك مقرّبا من الله. والإنسان إذا تحلّى بهذه الصّفات فإنّه سيكون مؤهّلا لحمل المسؤوليّة الّتي كلّفه الله بأدائها، فإن عرف مخاطر هذه المسؤولية الّتي يتحمّلها، آن له عندئذ أن يشمّر على سواعد الجدّ، وأن يقبل على أداء المهمّة المقدّسة الّتي شرّفه الله بها من دون المخلوقات، متعاونا مع غيره من بني جنسه، والأهمّ أن يكون ملتزما بالمنهج الّذي رسمه الله له في كتابه الكريم.

وإذا ما قام بذلك ملتزما بالتّوجيهات الّتي تبينها له الله، مؤمنا بالمنطلقات الّتي أقيمت له في أوّل الطّريق فسيجري الله على يديه خيرا لا نهايته له، ويحقّق له من وراء جهوده سعادة لا شقاء فيها، وسيصدق فيه مع سائر إخوانه السّائرين على منواله وعد الله **عز وجلّ**[2]:﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّلِحَاتِ لَيَستَخلِفَنَّهَمْ فِي الأَرْضِ كَمَا استَخلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾*.

وقد بيّن القرآنِ الكريم حقيقتين خاصّتين بالإنسان، هما:

1-**الحقيقة الأولى** : إنّ الإنسان مخلوق تافه، أصله الأوّل التّراب، وسلالته من ماء مهين، والشّأن فيه إن طالت به الحياة أن يعود إلى أرذل العمر.قال الله تعالى:﴿**فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ،خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ**﴾*.

2-**أما الحقيقة الثّانية**: فتشكّل الجزء الآخر من هوية الإنسان في القران، الإنسان ذلك المخلوق المكرّم على سائر المخلوقات الأخرى، وأنّه الّذي شرّفه الله بالخلافة على هذه الأرض و من الآيات

1- محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية، وجود الخالق ووظيفة المخلوق، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط8،1982م، ص:65.

2- محمد سعيد رمضان البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص:40- 41.

*سورة النور:الآية55.

*سورة الطّارق:الآية6.

الدّالة على ذلك. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ ،وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّا خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾*.

* هاتان الحقيقتان تتآلفان ضمن هويّة واحدة للإنسان، فالإنسان مهما بلغت مرتبته من السّمو ومهما اتّصف به من المزايا والصّفات، فليس شيء من ذلك نابع من ذاته، ولا هو اكتسبه بجهده واستغلال طاقته، وإنّما جاءه ذلك فيضا من الله عزّ وجلّ- وهذا ما يسّمه البوطي "الربوبية"-، وأمانة استرهنت عنده إلى أجل.

إذن الإنسان عبد مملوك لله عزّ وجلّ، خلق من ضعف، وينتهي إلى ضعف، ولكنّه نظرا للرّسالة الّتي حملها الله له يتميز بصفات نادرة جهّزه الله بها[1].

فعلى الإنسان أن يتبصّر ذاته، ويعرف مواطن ضعفها وقوّتها حتّى يساهم في إنجاز أعمال تخدم الإنسانية وتنهض بالحضارة.

فما فسدت الأرض بسوء ألّم بها من الوحوش أو الحيوانات، ولا بعادية من عوادي الطّبيعة، وإنما عمّ الفساد فيها وألّم البلاء بها يوم تاه بنو الإنسان عن هوياهم وواقع أحوالهم وحقيقة خصائصهم البشرية، فزالت آصرة التّعاون، وهاجت عوامل البغضاء بين النّاس، ثمّ انتشر فيهم وباء القتل والتهارج[2].

لذلك لابّد من العودة إلى التّربية القرآنية وإدراكها، لأنّ أيّ أمّة أدركت هذه التّربية إلاّ وارتفع المستضعفون فيها عن مناخ الذّل الّذي كان يشدّهم إليه، ونزل المستكبرون منهم عن عروش تسلّطهم وطغيانهم، ثمّ تلاقوا جميعا على طريق معتدل من التّعاون ابتغاء عمارة الأرض وإنشاء حضارة إنسانية سليمة فوقها. وهؤلاء الّذين اصطبغوا بهذه التربية القرآنية هم رجال الحضارة الإنسانية وجنودها وهم المهيّئون لإنشائها في قرار القرآن وحكمه[3].

---

*سورة الإسراء:الآية70.

1- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن،ص: 47، 49.

2- المصدر نفسه، ص: 51.

3 المصدر نفسه، ص: 53.

والقرآن الكريم كثيرا ما حدّثنا عن أمم هلكت ودمّرت، وأخبرنا بأنّ مصدر ذلك فيها هو ضياع تلك الأمّة عن رشد التّعرف عن ذاتها وحقيقتها، فاستوجب ذلك أن تصدّعت بالتّدريج إلى فئتين. أقليّة متكبّرة باغية، وأكثريّة ذليلة مستضعفة.فنتج عن ذلك أسباب التّمزّق والدّمار في حياتها، ونزل بها قضاء الله الّذي لا مردّ له، ثمّ لم ينج منها إلاّ الّذين تنبّهوا إلى هوياتهم،فساقهم ذلك إلى الطّريق الصّحيح[1] .

ومنه نستخلص أنّ الأساس السّليم لأيّ عمل يقوم به الإنسان، ويريد أن يحقّق به شيئا أو إنجازا، إنما يبدأ بمعرفة هذا الإنسان لذاته، وإدراك خصائصها إدراكا صحيحا دقيقا، هذا من جهة، ولا يتاح للإنسان أن يبني حضارة إنسانية مثلى إلاّ إذا كان يقينه بالله عزّ وجلّ عاليا، وإيمانه به مكتملا.

فهذه هي التّربية القرآنية الّتي دعا إليها، وهي بمثابة الغذاء الّتي يجب أن يتغذّى منه الإنسان إذا أراد أن يكون رجل الحضاره الإنسانية، وإذا كان همّه هو عماره هذه الأرض و إنشاء أرسخ مجتمع إنساني فوقها.

وهذه التربية تنمّي في الإنسان شعورا بأهمّيته في هذا الكون، وبثقل المسؤولية المناطة على عاتقه، فعلى الإنسان أن يتعرّف على حقيقته بكلّ دقّة، هذه المعرفة تجعله يلتفت إلى حياته الّتي يحياها إذ هي عدّته في كلّ سعي وعمل[2].فما هي حقيقه هذه الحياه؟ و كيف للإنسان أن يستفيد منها في سبيل إنشاء حضارة إنسانية مثلى؟

1 -المصدر نفسه،ص:55.
2- المصدر نفسه، ص: 62.

2-الحياة الانسانية في القرآن :

إنّ الإنسان فطر على حبّ الحياة والتّعلق بها أكثر من أيّ شيء آخر. ولعلّ الحكمة من ذلك أنها وسيلة زمنية بها يستخدم الشروط لعمارة الأرض من أجل إنشاء مجتمع إنسانيّ وحضارة راقية.

والمقصود بالحياة الإنسانية هو ما نعبر عنه عادة بالعمر.

فالإنسان ضنين بالحياة أكثر من أيّ شيء آخر يمتلكه، وما يكدح في سبيل رزق أو بناء دار أو التّجمّل بكساء، أو التّلذذ بطعام إلاّ سعيا إلى رعاية هذه الحياة، وتسبّبا لاستبقائها إلى أطول زمن ممكن.

فالحياة أقدس رأس مال يملكه الإنسان على الإطلاق، لذا لا بدّ عليه أن يتصرّف بالحياة على هذا الأساس، فيسخّرها لما هو بصدده من الواجبات والأعمال، ويتّخذها أداة لإنجاز المهمّة الّتي أنطيت به.

إنّ عمر الإنسان يعتبر آداة أولى بعد جوهرة الّذاتي يسخّرها من أجل القيام بأيّ عمل يريد التّوجّه إليه، فعليه أن يعلم حقيقتها، ويدرك أهمّيتها، ويعرف وجه العلاقة بينها وبين ما يريد أن يستخدمها من أجله[1].

وقد عرّف الله سبحانه وتعالى الحياة في القرآن الكريم **بقوله:﴿اعْلَمُوا أَنَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَ الأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا،وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَ رِضْوَانٌ ،وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورُ﴾***.

فالحياة من خلال هذه الآيات ا[illegible] زى معبرا إلى الحياة الآخرة، والإنسان يأخذ من هذه الحياة

1-محمّد سعيد رمضان البوطي:منهج لحضارة الإسلامية في القرآن، ، ص: 64-67.

*سورة الحديد:الآية20.

إلى تلك حصيلة كسبه وأعماله لينال عليها الجزاء الأوفى[1].

وقدّم القرآن رؤية شاملة للحياة فلم يقتصر على جانب واحد منها بل لفت النّظر إلى جانب آخر من حقيقتها، ودعانا إلى فهم الحياة فهما متكاملا جامعا بين تصوّر كلا جانبيها، وهو في تعريفه لنا بالجانب الآخر من حقيقة الحياة الإنسانية يكشف عن قداسة وحرمة بالغة لها. ويدفع بالإنسان إلى رعايتها و العناية بها.

فمن حبس تصوّره عند إحدى هاتين النّظريتين، فقد أدرك شرط الحقيقة، وكان في تعامله مع الحياة خطئا ومقصّرا.

فصنف من النّاس يقف عند الشّطر الأوّل الّذي رسمه القرآن للحياة الدّنيا، ففرّا إلى الكهوف القاصية وعزلوا أنفسهم، فسعوا بذلك إلى خراب الأرض بدلا من أن ينفّذوا أمر الله في النّهوض بعمارتها.

كما وقف اخرون عند شطرها الثّاني فقط، فكان عاقبة أمرهم أن نظروا إليها أنها المصدر والمال، وركنوا إليها ركون من يطمئنّ إلى أنّها اليوم الّذي لا مساء في نهايته، ولا غد من ورائه. فكانت النّتيجة إفساد الأرض وخرابها[2].

فإذن لابّد من الجمع بين الشّطرين فلا إفراط ولا تفريط.

ولقد استطاع رجل الحضارة القرآنية بحكم فهمه للحياة، أن يستخدمها من أدّق السّبل وأقومها لتحقيق مبادئه وغاياته دون أن يدخل مع غيره في صراع، ودون أن يزهد في فرصها وأعمالها المفيدة، كما تمكّن من إخراج مقياس في غاية الدّقة من جرّاء فهمه المتكامل للحياة. هذا المقياس يعلم بواسطته متى ينبغي أن يكون ضنينا بالحياة محافظا عليها، ومتى يكون سخيّا بها، فهو بحكم التّربية الّتي تلّقاها من القرآن لا يتعامل مع الحياة على أساس مشاعره النّفسية تجاهها، وإنّما على أساس ما تقتضيه الوظيفة، الّتي كلّف بانجازها.

1-محمد سعيد رمضان البوطي:منهج الحضارة الإنسانية في القرآن،ص:68.
2-المصدر نفسه،ص:71، 76.

فهؤلاء الرّجال بواسطتهم نشأت الحضارة الإنسانية في المجتمع الإسلامي الّذي نشأ ورعاه محمّد (صلى الله عليه وسلم)[1].

فقد كانت الكروب الدّنيوية تسحق أحدهم سحقا ، فلا يتأفّف من حياته، ولا يتضجّر من ثقلها ومع ذلك يظّل صابرا متحمّلا. و من الأمثلة على ذلك **عمران بن الحصين(ت52ه)** الّذي لم يذق من حياته سوى مرارة الآلام و البؤس، فلقد أقعده المرض على سرير من جريد النّخل قرابة ثلاثين عاما. دون أن يفارق البِشْر وجهه أو تفارق البسمة شفته. ولمّا رآه أخاه العلاء يبكي مرّة،قال له: لِم تبكي؟ قال: لهذه الحال الّتي أنت فيها.قال: لا تبك، فإنّ أحبّه إلى الله أحبّه إليّ[2].

فهذا المثال يبيّن كيف تعامل المسلمون الّتي شربوا من نبع القرآن تعاليم التّربية الصّحيحة فكانت عندهم الحياة الدّنيا وسيلة لنيل رضى الله، وأداة للعبور إلى الآخرة.

وعلى عكس المسلمين نرى الغرب يتخبّطون في حياتهم لأنّهم لا يدركون قيمتها ولا يرجون لأنفسهم فيها هدفا يرجون تحقيقه، وإنّما يقبلون على سرّ غامض مجهول، لا يدركون كيف تلبّسهوه ولا يعلمون إلى أيّ عاقبة سيؤول، كلّ ما يتصوّروه منها أنّها الفرصة الوحيدة لممارسة الوجود وقطف ثماره، فإذا انقضت الحياة، انقضى حظّ صاحبه من الوجود كلّه، وعاد إلى ظلمات العدم المطلق.

وانطلاقا من هذا التصوّر يقبل أحدهم على حياته، فيمارس حياته بنفس هائجة، وتكون النّتيجة إمّا أنّه يسلمه الضّجر والضّيق إلى اضطراب فكريّ يقوده إلى الانتحار،وإمّا أن تزّجه حاله تلك في بعض الأمراض العصبيّة أو العقد النّفسية، فيتخّذ من العيادات النّفسيّة ملجأ، وينتقل من واحدة إلى أخرى[3].

1- المصدر نفسه، ص: 78.

2-محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص: 80.

3- المصدر نفسه، ص:85- 87.

فالحياة الإنسانيّة جسر يعبره الإنسان للوصول إلى الضّفة الأخرى الّتي نقصد بها الحياة الآخرة، كما أنّ الله جعل الدّنيا مزرعة ننبت فيها ما يفيد من الزّروع حتّى إذا ما جاء يوم الحصاد يكون الثّمار ناضجة وصالحة للاستفادة منها. لذلك لا نهمل الحياة الدّنيا ونحرم أنفسنا منها، ولا نتّخذها غايتنا ،وإنّما نعتبرها وسيلة للوصول إلى هدف، ومكانا لعمارة الأرض وبناء حضارة إنسانية مثلى رسم الله خطوطها في القرآن الكريم.

3- الكـــون:

إنّ الكون في القرآن الكريم هو جملة المخلوقات والمظاهر الّتي سخّرت لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه ورعايه أسباب حياته ورفاهيته.

فالكون عنوان جليّ بارز على وجود هذا المكوّن ووحدانية، وعلى أنّه متّصف بسائر صفات الكمال مبرّأ عن جميع صفات النّقصان[1].

وهو ليس بمجرّد ظاهرة طبيعية هائلة لا حدود لها، نشأت على نحو تلقائيّ أو عن صدفة لا قانون لها، بل هو صنع بديع حكم أبرزه للوجود صانع لا نهاية لقدرته وعلمه وحكمته ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾* . وهذا الكون يسوده نظام تام وقوانين محكمّة، يقول تعالى:﴿ **خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ** ﴾* . أي بحسب قانون وغاية، وهو دليل على وجود صانعه دلالة لا يصحّ أن يكون حولها شكّ [2] ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾* .

وقد بيّن القرآن الكريم للإنسان أنّ جلّ ما يراه حوله من أشياء الكون ومظاهره مسخّر من قبل الله عزّ وجلّ لخدمه الإنسان، وتدبير أسباب عيشه، وتحقيق شروط رفاهيه.

*قال تعالى:﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**﴾* .

ويقول أيضا:﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾* .

1- المصدر السّابق: ص :93.

*- سورة النّمل: الآية 88.

*سورة الحشر:الآية25.

2- محمد عبد الهادي أبو ريدة: الإسلام والحضارة، تر:فيصل بدير عون ،ج3، ص :64.

*سورة إبراهيم:الآية10.

*سورة لقمان:الآية20.

*سورة الملك:الآية15.

فكلمة "**ذلولا**" في قوله عزّ وجلّ صيغة مبالغة بمعنى مذلّلة، فقد صوّر الله الأرض كأنّها مائدة وضعت بين يدي الإنسان بكلّ ما في باطنها من ذخر وكلّ ما على ظاهرها من خير. هذا ليُعمل قدرته الفعليه ومواهبه الفكريّه[1].

غير أنّ الله استثنى بعضا من الظّواهر والأنظمة الكونية عن عموم هذه المسخّرات من ذلك ظاهرة الموت الّتي جعلها الله قضاء مبرما في حقّ كل من دخل في عالم الأحياء فليس من سبيل إلى التحرر منها أو القضاء عليها مهما كانت الأسباب.

فعلى الإنسان أن يدرك مكوّنات الكون الّتي يراها حوله، ويعرف صلة ما بينه وبينها ويوقن بأنّ الله عزّ وجلّ ما أقامها إلاّ في خدمة الإنسان وتحقيقا لمصالحه، وأنّها مسخّرة له على أتمّ وجه. والقرآن يؤكّد للإنسان بأنّ معظم ما يراه، ويستهوي لذّته النّفسيّة إن هو إلاّ سراب باطل، وظلّ زائل.

وإنّنا لنجد آيات عديدة تتفنّن في إبراز هذه الحقيقة، وتبالغ في تحذير الإنسان من الاغترار بالدّنيا ومغرياتها، وقد سمّاها الله عاجلة، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا** ﴾*.

ولو تأمّلنا كيف اصطبغ الرّعيل الأوّل من المسلمين بهذه الرّؤية القرآنيّة، وكيف تأتّى لهم تأسيس حضارة باسقة الأغصان راسخة الجذور، بسطت سلطانها خلال عشرين عاما على ثلاثة أرباع المعمورة آنذاك.

فالكثير منهم سيقت له الدّنيا وهو يمرّ بأصعب الظّروف على أن يتخلّى عن الإسلام الذّي بعث به، وأن يقلع عن دعوة النّاس إليه،مثلما وقع مع رسول الله (**صلى الله عليه وسلم**) عندما عرض عليه

1- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية من القرآن، ص :95 ،98.
* سورة الإسراء: الآيتين [18- 19].

عتبة بن ربيعة (ت 624م)ما يشاء من الملك والمال والزّعامة على أن يقع عن تسفيه أحلامهم وسبّ آلهتهم ولكنّ الرسول الكريم رفض ذلك، لأنّه نظر إلى الدّنيا الّتي عرضت عليه من خلال عمله وتفكيره، ومن مستوى المسؤوليه الّتي يتحمّلها، و المهمّه الّتي كلّف بإنجازها وهي تبليغ الرّسالة -رسالة نشر الإسلام-[1].

ثمّ إنّ النّبيّ **صلى الله عليه وسلّم** كرّر هذا الموقف مع أصحابه في كثير من المرّات ليبيّن لهم هذه الحقيقة، وليبعث في نفوسهم الطّمأنينة بأنّ أفضل سبيل للاستفادة من الدّنيا أن يحرّر الإنسان نفسه من سلطانها، ثمّ يسلّم القيادة إلى عقله وتفكيره لا إلى شهواته ورغباته، وأهمّ تلك التّجارب تجربة الهجرة إلى المدينة المنوّرة، فقد قام تعارض بين ما يملكه أصحاب الرّسول من جاه ومال، وما وقر في نفوسهم من حقائق الإسلام، وضرورة النّهوض بها، فرأوا أنّ عليهم الاختيار فإمّا أن ينفضوا أيديهم من المال الّذي يملكونه والوطن الذّي تعلّقوا به ليسلم لهم دينهم، وليتيسّر لهم النّهوض بواجبهم الحضاري. وإمّا أن يفرطوا في العقيدة الّتي استيقنتها عقولهم، والواجبات التّي حمّلها لهم الله عزّ وجلّ، فيسلم لهم المال والدّور والوطن. فاهتدى الصّحابة إلى أنه لا فائدة من المال والوطن، إن هم تجرّدوا عن سلاح اليقين، وانقطعوا عن سعيهم إلى بناء الأمة. فاتّخذوا قرارهم بقرار رسول الله وهجروا كلّ ما يملكونه حتّى الأهل والأولاد، واتّجهوا شطر يثرب الّتي كانت تعاني حينئذ من سوء المناخ، وأنواع الوباء[2]. فكان بقرارهم هذا فتح لهذا الدّين، واتّساع لرقعة بلاد المسلمين.

فواجب الإنسان أن ينسجم مع هذا الكون ويتّخذه أداة تساعده على إنجاز مهمّته في هذه الحياة وهي مهمّة إعمار الأرض وبناء حضارة قويمة الأسس.وليس فقط الانسجام مع الكون، وإنّما على الإنسان أن يتعاون مع الكون والحياة، وهذا ما تمرّس عليه الرّعيل الأوّل من المسلمين، فكان لذلك آثار عظيمة تجلّت في سياقهم وفتوحاتهم، وفي الحضارة الّذي تحقّقت على أيديهم في مدّة يسيرة. ومثال ذلك **عبد الرّحمان بن هشام الدّاخل(113ه-172ه)** الّذي قصد الأندلس و ليس

1-محمد سعيد رمضان البوطي:منهج الحضارة الإنسانية في القرآن،ص :124- 125.
2- المصدر نفسه، ص :122، 127.

معه من مقوّمات العمل السّياسيّ و الكسب الحضاريّ إلاّ التّبصرة القرآنية عن الكون والإنسان والحياة، فكانت تلك التّبصرة بمثابة المفتاح الّذي فتح الله له به السّبيل إلى إقامة مجتمع إنسانيّ سليم يتمتّع بحضارة إنسانية مثلى في أقصر مدّة. وقد ظلّت حضارته مزدهرة حتّى خلف على رعايتها خلف، أهملوا تلك التّبصرة القرآنية، فانغمسوا في ملذّات الدّنيا. فكان أن حقّت عليهم سنّة الله في عباده، فهبطت تلك الحضارة من أوج حضارها وقوتها إلى دركات الضّعف، ثمّ انحطت أخيرا في الزّوال[1].

ومن الواجب على الإنسان أن يحسن التّعامل مع الكون باستخدامه في عمارة الأرض، وتحقيق ازدهار أمّته وتأسيس حضارة، وأن يتّخذ الحياة وسيلة للعبور إلى الآخرة فلا ينقص من قيمة الحياة الدّنيا ولا يجعل همّه هو العيش فيها دون أدنى تفكير في الحياة الآخرة فلا بدّ من التّوازن بين الحياتين فيما يخدم الإنسان.

وقد حدد الإسلام نظرته وفهمه للإنسان والكون والحياة وتنظيم نشاط الإنسان والحياة ،ورسم منهج السّلوك والتّفكير والعلاقات المختلفة، ينطلق من كلّ ذلك من مبادئ وأسس عامّة تكون بمثابة المحور الّذي تدور عليه كلّ تلك المفاهيم، والقاعدة الّتي تنطلق من تلك التّشريعات والقوانين والتّعاليم، وتبنى عليها الالتزامات الإنسانية، هذه الأسس و المبادئ هي:

-العبودية لله تعالى وحده والتّشريع له.

-التّنسيق بين التّكوين و التّشريع.

- الإيمان بوحدة التّنوّع الإنسانيّ .

-الإنسان أكرم موجود على هذه الأرض.

. الموازنة والاعتدال.

-اعتبار الحياة الدّنيا مرحلة في وجود الإنسان[2] .

1-المصدر نفسه،ص:133-134.

2-لجنة التّأليف في التّوحيد: المعلم الأساسية للرسالة الإسلامية، دار التوحيد، الكويت،ط1، 1399ه، 1979م،ص : 19.

وما تميّز به البوطي في تناوله لموضوع الحضارة أنّه يشير إلى موضوع السّببيّة؛ فكلّ شيء في هذا الكون في نظرة يحتاج إلى غيره، وما من إنسان وهو يتصوّر احتياجه واحتياج أمثاله إلى بعض الأمور و استغنائه عن أمور أخرى إلاّ ويحتاج إلى من يعينه على قضاء حوائجه؛ فالمحتاج إليه يسمّى سببا أو علّة، والشّيء المحتاج يسمّى معلولا أو مسبّبا .ويوجد مسبّب الأسباب وهو الله عزّ وجلّ[1].

فالحياة إذن أسباب تؤخذ لتحقيق أهداف معيّنة،فعلى الإنسان أن يأخذ بالأسباب و يتوكل على الله عزّ وجلّ للوصول إلى مراده، و ما الحضارة الإنسانية إلاّ أسباب أخذها الإنسان واجتهد فيها فكانت خاتمه هذا الاجتهاد و السّعي تأسيس حضاره إنسانيه مثلى، ترتكز على قواعد وتعاليم من القرآن الكريم.

ولم يتحدّث البوطي عن هذه العناصر الثّلاثة فحسب بل يبيّن في كتابه أنّ هذه العناصر الثّلاثة في تفاعلها وانسجامها تستلزم إحاطة بمقتضياتها، وتتطلّب معرفة بها ، هذه المعرفة حتما سيكون المعنيّ بها العنصر الفعّال في بناء الحضارة وهو (الإنسان) .

1-محمد سعيد رمضان البوطي:كبرى اليقينيات الكونية،وجود الخالق ووظيفة المخلوق،ص: 286.

4- المعرفة في القرآن :

إنّ موضع المعرفة نسيج تكوّن سداه ولحمته من الحديث عن الإنسان والكون والحياة، فكلّ ما سبق ذكره إن هو إلاّ حديث عن المعرفة الّتي يجب أن يتسلّح بها الإنسان تجاه هذه العناصر الثّلاثة. وسبيل القرآن في إنشاء حضارة إنسانية مثلى يتمثّل في معرفة الإنسان كل من هذه العناصر الثّلاثة معرفة صحيحة: وأن يعرف وجه العلاقة القائمة بينهما[1].

ويوجد الكثير من الباحثين و العلماء من عادوا بعد رحلاتهم الطّويلة من المعرفة يَشْكُونَ الجهل وينشدون المعرفة مثل: **أينشتاين(1879م-1955م)**، فقد أعلن أنّ كلّ ما جمعه من معلومات عن الكون، لم يستطع أن يقدّم عنه إلاّ لغزا مقفولا يستعصي على الحلّ[2] !.

و المعرفة ليست جزئية وإنّما كلّيّة، فالإنسان مطالب بمعرفة عامّة إذا أراد دراسة الكون، أو دراسة علم من العلوم، إذا هو أراد الكشف عن الحقيقة، والتّعرف على الوجود الكونيّ الّذي يدور في فلكه معرفة تكون غير معمّقة ولكنّها تبعث الطّمأنينة في النّفس.

ولتحقّق هذه المعرفة لابدّ من شروط هي:

أ-التّعرف على الجهاز الّذي هو الإنسان – صنعه وخلقه-.

ب- معرفة المكوّنات الهائلة الّتي تحيط به.

ج- التّعرف على المعنى العامّ لوجود هذه المكوّنات المختلفة الّتي تحبط بالإنسان، وتبيين الصّلة ما بينه و بينها، و كيف أنّها خاضعة له مهيّأة لخدمته[3].

إنّ المعارف والعلوم مهما اختلفت عن بعضها البعض في الظّاهر فإنّها متشابكة في الحقيقة، والسّبيل إلى اكتساب هذه المعارف و العلوم الكلّيّة والتّامله الّتي من شأنها أن تبعث الثّقه بالمعلومات الفرعية والجزئيّة الّتي تأتي على أعقابها، لا يتحقّق إلاّ عن طريق كتاب الله عزّ وجلّ، فهو الّذي يقدّم للإنسان خارطه إجماليه لبيان هذا الوجود كلّه، وهو الّذي يعرّفه على مرافق هذا البيان، وعلى علاقه

1-محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص: 136.
2- المصدر نفسه، ص: 137.
3- المصدر نفسه ص: 140، 143.

ما بينها وسبل الاستفادة منها. يقول جلّ جلاله:﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾* .

والمعرفة الّتي دعا إليها القرآن لا تتطلّب مجهودات كبيرة من الإنسان، ولكنها تتطلّب منه أن يكون على درايه من أين يبدأ وكيف يسير[1].

وإذا طبّقت هذه المعرفة من قبل الإنسان يكون قد وعى الكون بما فيه، وخدم الأرض بما قدّمته له، وبنى الحضارة الّتي تضمّن القرآن الكريم أسسها، وهي الحضارة الإنسانية المثلى الّتي تحقّق للجيل الأوّل من المسلمين رغم العدّة البسيطة والإمكانات المتواضعة، ولكن لهم ذلك بفضل الارتباط الوثيق بما جاء في الدّين، وتطبيق المنهج الّذي رسمه الله في قرآنه، فتشكّلت لهم حضارة إسلامية لم تضاهيها أيّ حضارة في ذلك الوقت، ولكن لم يدم الأمر ،ولم يستمرّ على حاله ،وإنّما تقهقرت مكانتها وتولّت ،في الوقت الّذي عرفت الأمم الغربية نهضة في ميادين الحياة كلّها، وأسّسوا حضارة لا تزال إلى يومنا هذا. فما هي عوامل تدهور الحضارة الإسلامية؟ وهل لهذا التّدهور دور في قيام حضارة الغرب ؟ هذا ما سيكشفه المبحث الموالي.

*سورة الأنعام :الآية38.

1 - المصدر السّابق، ص:150.

المبحث الثّاني : عوامل تحجّر الحضارة الإسلاميّة وازدهار الحضارة الغربيّة

لقد كثرت الأقوال والتّأويلات فيما يخصّ تدهور الحضارة الإسلامية؛ ومن تلك التّفسيرات ما ذهب إليه البعض بقولهم إنّ سبب تخلّف الحضارة يتمثّل في انطواء المسلمين على أنفسهم، أو عدم التّفتح على الحضارات الأخرى وانغلاق باب الاجتهاد. و هذا التّفسير نفاه **البوطي** في كتابه موضوع الدّراسة واعتبره خاطئا .

فالتّحجّر حسب البوطي – إنّما سببه أنّ المسلمين تحوّلوا من الإبداع إلى التّبعية، ومن الإنتاج و التّصدير إلى الاستيراد والاستهلاك [1].

وعرض في كتابه رأي الكاتبة **زيغريد هونكه(1913م-1999م)** الّتي عقدت مقارنة بين الحضارتين الغربيه والعربيه وبيّنت أسباب ازدهار الحضاره الإسلاميه ومنجزاتها.

فالحضارة الإسلامية، ازدهرت لأنّها توفّرت على:

-دراسة لغة، وتعلّم القراءة والكتابة بالنّسبة لجميع المسلمين.

-المهام الّتي يفرضها القيام بالفرائض الدّينيّة مثل علم الفلك و الرّياضيات .

-استيعاب المعارف الموجودة.

-التّعاليم و الإرشادات الصّادرة عن رسول الله والّتي تحفّز على طلب العلم ودراسته.

-وجوب تحصيل العلوم الأخرى غير الإسلاميّة واتّخاذها سلاحا للدّفاع عن الإسلام.

- شرح النّصوص اليونانيّة والهنديّة و التّحقّق من مدى صحّتها والتّعليق عليها.

-توسيع الآفاق عن طريق الهجرة و الرّحلات والمبادلات.

- التّشجيع على مواصلة البحث الذّاتيّ، و تدريب الملكات الفكريّة.

-الجوّ السّائد في مجال حريّة، الرّأي و التّسامح بوجه خاصّ [2].

1- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص: 175.
2- انظر: زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب،ط8. 1413ه، 1993م.

هذه هي العوامل الّتي ساهمت في ازدهار الحضارة الإسلامية في نظر هونكه، وإن كانت لم تركّز على العقيدة الإسلامية ومدى تمسّك المسلمين بتعاليم الدّين الإسلامي وتطبيقهم لها.

كما بيّنت من ناحية أخرى العوامل التي أفضت إلى انحطاط الحضارة الإسلامية وتتمثل في:

-الغزاة الأجانب مثل الأتراك.

-الحروب الصّليبية وحروب المغول.

-التّعصّب وتقييد الحركة الفكرية.

شيوع الفكر الخرافيّ الّذي تسبّب في الخضوع و الاستسلام كما نتج عنه انتشار النّزعة الصّوفيّة* والقدريّة و الجبريّة.

عبادة الماضي والإيمان بالمغيبات.

-السيّطرة العثمانية والمدّ الاستعماري الّذي ظهر فيما بعد (الإنجليز وفرنسا)[1].

هذا ما ذكرته المستشرقة زيغريد هونكه عن عوامل ازدهار وانحطاط الحضارة الإسلامية، وقد اعتبر **البوطي** هذه العوامل سطحيّة لم تؤكّد على الأسباب و العوامل الحقيقيّة الّتي كان لها أبلغ الأثر في ازدهار وانحطاط الحضارة الإسلامية .

وقد أشار **مالك بن نبيّ** إلى مثل هذه العوامل في كتاباته عن الحضارة، واعتبر الحضارة الإسلامية إنّما تتأثّر بعاملين داخلي يتمثّل في : القابلية للاستعمار، ويقصد بذلك ضعف المسلمين و اتّباع الغرب والاعتماد على الاستيراد بدلا من التّصدير. فالحضارة لا تقوم إلاّ بالإنتاج الّذي يرتكز على عناصر ثلاثة: **إنسان+ تراب+ زمن**.

أمّا العامل الثاني فهو خارجيّ يقصد به: الاستعمار[2] . وهو ما أشارت إليه **هونكه** " الحروب والحملات الصّليبية". فهذا العامل هدّد مصير الحضارة وزعزع استقرارها.

1- انظر المرجع السابق.

2- مالك بن نبيّ: وجهة العالم الإسلامي ، تر: عبد الصبور شاهين: منشورات anep ،ط1، 1406 ه، 1986م، ص: 144.

وهذان العاملان يتداخلان ويختلطان فيكون الأثر كبيرا.و الأسباب الحقيقية وراء تخلّف المسلمين هي الغشاوات و الحجب الكثيفة الّتي أسدلت على بصيرة الإنسان و لم تمكنّه من معرفة حقيقته و حقيقة الحياة الّتي يتمتّع بها، والدّنيا الّتي تطوف حوله. ومن معرفة المهمّة الّتي خلق الإنسان للنّهوض بها في هذه الحياة[1].

فإذا ما جهل الإنسان هويّته، و لم يدرك قيمة المسؤولية الملقاة على عاتقه، و لم يتمكّن من اكتشاف حقيقة الحياة وسرّ الدّنيا و ما يحيط به، فانفعاليته و أثره سيغيب، و بالتّالي تأثيره سيكون سلبيا على الحضارة بدلا من الإسهام في تشيدها و العمل على الارتقاء بها فإنّه بهذه الأمور سيؤدّي بها إلى التّراجع و الانحطاط.

و الأمّة الإسلاميّة اليوم تقع بين موازين الحضارة الغربية لا تستطيع التّحرك أو الانفلات منها.

ويرجع البوطي انحسار الدّولة الإسلاميّة إلى انقسام جسمها إلى دول و مماليك، ثمّ زادها ضعفا الإرهاق الّذي سبّبته الحملات الصّليبية و الغزو المغوليّ. ولكن مع ذلك ظلّت محافظة على قوّتها وازدهار إلى أن جاءت الخلافة العثمانيّة، فعادت الحضارة الإسلامية واتّجه خطّها البياني نحو الصّعود.وفي عصر الخليفة الإسلامي **محمّد الفاتح** ازدهرت الحضارة الإسلامية في ربوع العالم الإسلاميّ، ولكنّ وسط هذه الخلافة ظهرت مظاهر الافتتان بالمال والرّكون إلى المتعة والانصراف إلى إضاعة الوقت، فبدأت دولة العثمانيين بالضّعف وظهرت فيها عوامل الصّراع.

وهذه المرّة لم يعرف خطّ الحضارة عند المسلمين صعودا لأنّهم لم يعودوا يدركون التّبصرة القرآنيه بحقيقه عناصر الحضاره (الإنسان ،الكون، الحياه). فحجبتهم الشّهوات عن التّشعور بضرورة وضع الحياة الدّنيوية في مكانها المناسب و العمل للآخرة[2] .

1 -محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص: 165 .
2-المصدر نفسه، ص: 167، 168 .

وبينما هم في ركودهم نهض الغرب من رقاده الطّويل، وتفاعلت الحياة الحضارية في تلك الرّبوع مع نفسها.

والحضارة الإسلامية فقدت قوّتها يوم فاتها أن ترعى سلامة هذه العلاقة بين العلم والضّمير ،بين العناصر الماديّة والوجود الرّوحيّ، فغرقت في هاوية الصّوفية وفي فوضى المرابطين الّتي تسبّبت سقوطها[1].

وبتراجع الحضارة الإسلامية وتدهورها، برق نجم الحضارة الغربية مستفيدين من تراجع مكانة حضارة المسلمين. وما يتوّهمه النّاس ازدهارا كبيرا للحضارة الغربية إنّما هو في الحقيقة انحكاس لتدهور الحضارة الإسلامية.

وإذا كان البعض يتساءل عن سرّ ازدهار حضارة الغرب رغم أنّها لا تملك دينا ولا تعاليم روحيّة، فإنّ سبب هذا التّطورّ والرّقيّ هو أنّ الله سبحانه وتعالى التزم بأن تبقى الحياة الدّنيا عامرة، وستظل تجدّد نفسها، وستبقى الحياة الحضارية بتعاقب في أهلها، ولكنّ القيادة تتحوّل عندئذ من أيديهم إلى أيدي رجال آخرين[2]، مصداقا لقول الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ*** ﴾*.

و لكنّ هذا التّراجع والتّخلّف الّذي أصاب حضارة المسلمين، من الممكن أن تتجاوزه وتعود إلى سالف عهدها، وتبني مجدها من جديد، وهذا يحصل إن هي راجعت نفسها، وصحّحت علاقاتها، وهذا ما سنتعرّف عليه في المبحث التّالي.

1- مالك بن نبيّ: وجهة العالم الإسلامي، ص: 144.
2 - محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص: 176.
* سورة محمد: الآية:30 .

المبحث الثالث: كيفية انبعاث الحضارة الإسلامية من جديد

إنّ المرحلة التي وصلت إليها الحضارة الإسلامية من التّحجّر والتّدهور من الممكن تجاوزها إن أخذ المسلمون بعلاج جماعيّ يشترك فيه أفراد الأمّة العربيّة والإسلاميّة، مهما كانت فئاتهم وطبقاتهم، لأنّ الجهود الفردية المتناثرة قلّت أو كثرت لابدّ أنّ تتبدّد وتذهب أدراج الرّياح. وكثيرون هم العباقرة والأفذاذ من الرّجال الّذين نزخر بهم أمّتنا، دون أن يكون لهم أثر في دفع عجلة بلادهم نحو أيّ تقدّم أو ازدهار ذلك لأنّ هؤلاء الأفراد قلّة والعمل الحضاري إنّما ينهض بجهد الأمّة، ولا يمكن أن يتحرّك بمساعي أفراد[1].

والخطوات الّتي يرسمها **البوطي** من أجل تحقيق نهضة حضاريّة أصيلة هي:

أ-**الخطوة الأولى:** وجود الرّغبة الكافية لديهم في السّعي إلى استعادة هذه الحضارة، ومعلوم أنّ الرّغبة في الشّيء لا تأتي إلاّ بعد الإيمان الصّادق به. والرّغبة هي شرط أساسيّ للنجاح أيّ عمل[2].

ب-**الخطوة الثّانية:** القضاء على التّجزّؤ وأسبابه؛ لأنّ التّجزّؤ من أهمّ الأسباب الّتي تكرّس موهبات التّخلّف بشتّى صوره وأنواعه، ويعتبر التّجزّؤ نتيجة سيّئة للاختلاف، والأمّة الواعية هي الّتي تعرف كيف تتّخذ من خلافات جماعاتها سلّما إلى تمحيص الفكر وسبيلا للاتّفاق على ما هو أصلح وأكمل[3].

وعوامل التّجزّؤ تتسلّل إلى الأمّة إذا كانت تعاني من فراغ فكريّ وفقر إلى المبادئ والقيم الّتي تغنيها بدرايه سليمه عن حقيقه كلّ من الإنسان والكون والحياه.

والعجيب في الأمّة الإسلامية هو وجود شعار الوحدة الّذي يتغنّى به البعض دون تطبيقه، فالوحدة كدائره تحتاج إلى محور ترتكز عليه لرسمها.

ج-**الخطوة الثّالثة:** الاستقرار النّفسي والفكري: يتحقّق هذا الاستقرار عن طريق ترسيخ المسلّمات

1- محمّد سعيد رمضان البوطي: حوار حول مشكلات حضارية، الدّار المتّحدة للطّباعة والنّشر، مكتبة رحاب، الجزائر، ط3، 1410هـ، 1990م، ص :88.

2 محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإسلامية في القرآن، ص :384.

3- رمضان البوطي: من المسؤول عن تخلّف المسلمين؟، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص :75 .

الأساسية الّتي ذكرت من قبل، كما يتحقّق في ظلّ الوحدة، وعن طريق العمل الجادّ على قطع أسباب الاضطراب النّفسيّ والفكريّ الّذي يجتاح اليوم السّواد الأغلب من الأمّة الإسلامية[1].

فالجيل النّاشئ يعاني من اضطراب نفسيّ وفكريّ خطيرين، ويعود هذا الاضطراب والشّتات الفكريّ والنّفسيّ إلى عوامل كثيرة تتفرّع من عامل واحد هو المنعطف الفكري والاجتماعي والسّياسي الّذي تمرّ به الأمّه العربيه الإسلاميه.

والسّبيل الأمثل للقضاء على الاضطراب هو تحقيق الخطوات الّتي تنهض بها الأمّة الإسلامية.

-تسخير أجهزه الإعلام العربيّه والإسلاميّه على اختلافها لتوجيه الوعي العربيّ والإسلاميّ إلى ما يتلاءم ومضمون الخطوات الّذي نحن بصدد الحديث عنها، وتطهير الفكر من خطر المذاهب والاتّجاهات الّتي تتنافض مع قدسيّه العلم.

- واجب النّهوض بالإسلام والدّعوة إليه وفق منهج علميّ سليم، بعيد عن استثارة العواطف واستغلال الأعصاب المتشنّجة[2].

د-**الخطوة الرّابعة:** تلاحم الثّقة بين قطاعات الأمّة:المقصود بقطاعات الأمّة ما يشمل الحكّام، وسائر فئات الأمّة على سواء.

فلا تنهض أمّة إلاّ بمزيج من هذه القدرات كلّها، فلا بدّ من التّعاون فيما بينها، ولكي يتحقّق هذا التّعاون لا بدّ من وجود الثّقة[3]، لأنّها شرط أساسيّ لأيّ عمل جماعيّ تنهض به الأمّة في سبيل استعادة مجدها الحضاريّ ولا تنبت هذه الثّقة إلاّ حيث تظهر رائحة إخلاص النّاس بعضهم لبعض. ولا يأتي الإخلاص إلاّ بفضل التّبصّره القرآنية الّتي أشرنا إليها فيما سبق من المباحث[4].

فالثّقة عامل أساسيّ في بعث الحضارة الإسلامية لأنّها تبعث على الاستقرار وتوطّد العلاقات بين أفراد الأمّة.

هـ- **الخطوة الخامسة:** استخدام الطّاقات التّربوية: إنّ الأمّة الإسلاميّة بحاجة إلى استخدام جميع طاقاتها التّربويّه بكلّ عواملها وأدواتها، لترسيخ المسلّمات الأساسيّة الّتي سبق الحديث عنها، في تربة

1- المصدر نفسه،ص :189.
2-محمد سعيد رمضان البوطي: حوار حول مشكلات حضارية، ص :93، 95.
3 محمد سعيد رمضان البوطي: هل المسؤول عن تخلف المسلمين، ص :60.
4- المصدر نفسه، ص:61 .

المجتمع الإسلامي، وهذا يتأتّى عن طريق بذل المجهود التّربوية والعلميّة من أجل أن ينقاد النّاس على اختلافهم وبطواعيتهم لتلك المسلّمات. وهذه التّربية تحصل عندما يتشبّع أفراد الأمّة بالبصيرة القرآنية الّتي كشفت عن حقائق الكون، وأخذت للحياة حقّها. وبيّنت قيمة الإنسان وتكريم الله له.

لا بدّ أن يتربّى المسلمون الّذين ملّكهم الله ما على الأرض من خيرات، وما يوجد في باطنها من كنوز وثروات على الكيفيه الدّقيقه الّتي يجب أن يتعامل مع الدّنيا، فيدركوا سبل الحفاظ عليها، وطريقة استخدامها لتحقيق المبادئ والقيم العليا فعليهم أن يوقنوا قيمة الحياة، والعاقبة الّتي سيؤولون إليها بعد موتهم. فإذا تربّوا بهذه التّربيه القرآنيّه فإنّ خيرات الأرض وقدراتهم سيجعلونها بمثابة أداة سحرية تبعث لهم مجدهم الحضاريّ[1] .

وانطلاقا ممّا ذكرناه نخلص أنّ نهضة الأمّة الإسلاميّة لا تتطلّب علوم التّكنولوجيا ،ولا مشاريع علميّة متقدّمة، ولا تتوقّف على احتكاك بالدّول الغربية المتطوّرة، وإنّما ستنهض الأمّة الإسلاميه إن هي قامت على قاعده راسخه من المعارف الإنسانيّه الرّشيدة، وإن عرفت تظافر العوامل المادّية مع الأجهزة التّربويّة .

وخلاصة لما ذكرنا في هذه المباحث هو أنّ الحضارة الإنسانيّة المثلى الّتي تضمّن القرآن مفاتيحها تقوم على معرفة حقيقية وإدراك جيّد بقيمة كلّ من الإنسان، الكون، والحياة. فبهذه التّبصره القرآنية الرّشيدة يمكن بعث الحضارة الإسلامية من جديد، واسترداد مجدها التّليد.

1-محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص:197، 199.

الخاتمة

الخاتمة:

إنّ موضوع الحضارة شغل بال الكثير من العلماء و الباحثين نظرا لعظمته و قيمته في الحياة. و لقد كثرت التّعريفات المقدّمة للحضارة وتنوّعت، ولكنّها في مجملها تدّل لغة على الإقامة في المدينة والحضر.أمّا اصطلاحا فيقصد بها تلك المرحلة المتقدّمة من المراحل الّتي يعيشها الإنسان.و إن نحن بحثنا عن أسس قيام الحضارة السّليمة، ومعالمها الواضحة، فإنّنا سنجدها حاضرة في شكل مميّز و شيّق في القرآن الكريم.

و بعد هذه الرّحلة الشّيّقة في رحاب القرآن، وبعد التّجوال بين ثنايا هذا البحث خلصت إلى جملة من النّتائج وهي:

*يلتقي لفظ الحضارة مع مصطلح آخر هو المدنيّة،فكثيرا ما يستعملان بمعنى واحد غير أنّه يوجد فرق بينهما؛فإذا كانت الحضارة تتّصل بما هو روحيّ،فإنّ المدنيّة ترتبط بالأمور المادّية أكثر من غيرها.

*أسّس العلماء نظريّات حضارية وإن هي تنوّعت إلاّ إنّها تركّز جميعها على العنصر الفعّال المتمثّل في الإنسان، وتؤكّد على ضرورة وجود الأخلاق لتأسيس الحضارات.

*تناول القرآن الكريم عوامل و أسس لو طبّقتها أمّة من الأمم فستكوّن حضارة إنسانية مثلى،وإن تجاهلتها فسيكون مصيرها التّخلّف و الخسران.

*لقد كلّف الله الإنسان بعمارة الأرض وخدمتها،كما ألقى على عاتقه مسؤولية إنشاء الحضارة،فعليه أن يكون على قدر تلك المسؤولية.

*لابدّ من تظافر العوامل المادّية و العوامل المعنوية الرّوحية حتّى تنهض الأمّة الإسلامية، ولابدّ من تكاثف سائر المعارف و الثّقافات الّتي تقوم على أساس سويّ ،واتّخاذها منطلقا للقضاء على التّخلف، و الوصول إلى محطّة الرّقي و التّقدّم.

*في القرآن نظريّة تربوية متكاملة تقود إلى حضارة إنسانية راسخة سليمة تكشف عن اهتمام القرآن بالتّربية و الأخلاق.

*الحضارة عند البوطي هي ثمرة التّفاعل بين الإنسان و الكون و الحياة،و العنصر الأوّل هو ركيزة لقيام الحضارة،فعليه أن يدرك تفضيل الله له و يعرف هويّته،ويخدم الكون الّذي سخّره الله لخدمته.كما يجب أن يعلم قيمة الحياة فيتّخذها وسيلة لبلوغ غاية .

*ما نلاحظه في تعامل البوطي مع الحضارة في كتبه هو أنّه يتّصف بنزعة صوفيّة،إذ نجد الكثير من المصطلحات الصّوفية يوظّفها **البوطي** في حديثه عن عناصر الحضارة مثل:الكمال ،الرّبّانية.

*إنّ نظرة **البوطي** للحضارة تلتقي مع رؤية **مالك بن نبي** لها،فكلاهما حدّد لها نفس العناصر ،والاختلاف بينهما يكمن في التّسميات فقط،كما أنّهما ركّزا على محرّك هذه العناصر وهو الأخلاق و التّربية القرآنيّة.

*الحضارة مهما كانت ثمارها لا تعدّ حضارة إلاّ إذا كانت تخدم الإنسانية ،فإن كانت تستعبد الإنسان فهي أثر من آثار الظّلم و الطّغيان.

*إذا أرادت الأمّة الإسلامية أن تستعيد مجد حضارتها الّذي حضيت به في وقت من الأوقات،فعليها أن تصحّح سلوكاتها و تتبصّر بتعاليم القرآن، وأن لا تنساق وراء منجزات الحضارة الغربية.

ملحق:
التّعريف بالبوطي

ملحق:
التّعريف بالبوطي

محمّد سعيد رمضان البوطي ولد عام 1929م في قرية جيلكا قرب ابن عمر الواقعة في شمال شرقي سورية، والدّاخلة في حدود تركيا حاليا. هاجر والده المرحوم ملاّ رمضان إلى دمشق وله أربع سنوات.

أنهى البوطي دراسته الثّانوية في معهد التّوجيه الإسلامي بدمشق، التحق عام 1953 م بكلّية الشّريعة في جامعة الأزهر، وعيّن معيدا في كليّة الشّريعة بجامعة دمشق عام 1960م.

وأوفد إلى كتبه الشّريعة من جامعة الأزهر للحصول على الدّكتوراه في أصول الشّريعة الإسلامية، حصل على هذه الشّهادة سنة 1965م.

عيّن مدّرسا في كليّة الشّريعة بجامعة دمشق عام 1965م، ثمّ وكيلا ثمّ عميدا لها، وهو الآن رئيس قسم العقائد والأديان في جامعة دمشق.

اشترك في العديد من المؤتمرات العالمية والنّدوات العلميّة، وهو عضو في المجتمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمّان، وهو يتقن اللّغة التّركية والكردية إلى جانب اللّغة العربيّة، ويلّم بالإنجليزية.

له ما يقارب أربعين كتابا في علوم الشّريعة الإسلامية وآدابها، والفلسفة، والاجتماع ومشكلات الحضارة وغيرها، ترجم البعض منها إلى الإنجليزية والألمانية والفرنسية، من بين هذه المؤلّفات:

*الإسلام والعصر.

*هذه مشكلاتهم.

*هذه مشكلاتنا.

*اللّامذهبية أخطر بدعة تهدّد البشرية.

*فقه السّيرة النّبوية.

*شرح الحكم العطائية في أجزاء.

*من روائع القرآن.

*المرأة

*شخصيات استوقفتني

*قضايا فقهية

*منهج الحضارة الإنسانية في القرآن [1] .وهو الكتاب الّذي تناولناه بالدّراسة .

1- محمّد سعيد رمضان البوطي: شرح الحكم العطائية، ج1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1424، 2003م، ص: 2

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر و المراجع:

1-أحمد بنّاسي: المدخل إلى فكر مالك بن نبي،الجزائر ،(د.ط)،2006م.

2-أحمد عبد الرّحيم السّايح:فلسفة الحضارة الإسلامية،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،القاهرة، ط1،(د.ت).

3-أحمد عليّ الملاّ:أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية،دار الفكر للطّباعة و النّشر،دمشق،ط1، 1401ه،1981م.

4-أسوالد اشبنغلر:تدهور الحضارة الغربية،ج2،تر:أحمد الشّيباني،دار مكتبة الحياة،بيروت، لبنان، (د.ط)،(د.ت).

5-أبو الأعلى المودودي:نحن و الحضارة الغربية،الدّار السّعودية للنّشر و التّوزيع،ط2، 1407ه، 1907م.

6-ألبرت اشفستر:فلسفة الحضارة،تر:عبد الرّحمن بدوي، المؤسّسة المصريّة العامّة للتّأليف و التّرجمة و النّشر، (د.ط)،(د.ت).

7-أندريه لالاند:موسوعة لالاند الفلسفية،تر:خليل أحمد خليل، منشورات عويدات،بيروت،ط2، 2001م.

8-البخاري،أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم:الجامع الصّحيح المسند من حديث رسول الله و سننه و أيّامه،ج3،مطابع الشعب،(د.ط)،(د.ت).

9-التّرمذي،أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة:الجامع الصّحيح(سنن التّرمذي)،تح:بشار عوّاد معروف،مج5، دار الغرب الإسلامي،ط1، 1986م.

10-حسن رمضان فحلة:مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام،دار الهدى،عين مليلة،الجزائر ،ط1، 1410ه،1989م.

11-عبد الحفيظ حسين حسن:العلم و الحضارة في الإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،القاهرة، ط1، 1310ه،1970م.

12-عبد الحميد مهدى:ركائز الحضارة في الإسلام-مفهوم العلم،الإيمان،العمل-،دار الشّهاب،باتنة، الجزائر،(د.ط)،(د.ت).

13-عبد الرّحمن بدوى:اشبنغلر ،مكتبة النّهضة المصرية،القاهرة، د.ط، 1941م.

14-عبد الرّحمن بن خلدون:المقدّمة، دار الفكر للطباعة و النشر و التّوزيع،بيروت، لبنان،1427ه، 2007م.

15-الزبيدي،محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى:تاج العروس من جواهر القاموس،ج4،المطبعة الخيرية،مصر،ط1، 1406ه.

16-زياد عبد الكريم النّجم: توينبي و نظريّته في التحدي و الاستجابة(الحضارة الإسلامية نموذجا)،(د.ط)، (د.ت) كتاب مصوّر.

17-زيغريد هونكه:شمس العرب تسطع على الغرب،ط8، 1413ه،1993م.

18-سيّد قطب:-الإسلام و مشكلات العصر، دار الشّروق، القاهرة،مصر، ط11، 1412ه، 1992م.

-في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط10، 1410ه، 1990م.

19-شايف عكاشة:الحضارة العربية الإسلامية بين التطور و التخلف،ديوان المطبوعات الجامعية،بن عكنون،الجزائر، (د.ط)، 1994م.

20-شحادة النّاظور و آخرون:مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية،دار الأمل للنشر و التوزيع، عمّان، ط1، 1989م.

21-شوقي ضيف:الحضارة الإسلامية من القرآن و السنة،دار المعالارف، القاهرة،(د.ط)،(د.ت).

22-صمويل هنتغتون:صدام الحضارات...إعادة صنع النظام العالمي،تر:طلعت الشّايب،ط2، 1999م.

23-الفيروز أبادي :القاموس المحيط،تحقيق و تقديم:يحي مراد،مؤسسة المختار للنشر و التوزيع،القاهرة، ط1، 1429ه،1999م.

24-الفيّومي،أحمد بن محمد بن علي:تح:يحي مراد،مؤسسة الرسالة للنشر و التوزيع،القاهرة،ط1، 1429ه.

25-القاسمي،محمد جمال الدّين:محاسن التّأويل، ج12،دار إحياء الكتب العربية،ط1، 1376ه،1957م.

26-القرطبي،أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر:الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمنه من السنة و آي القرآن،ج3،تح:عبد الله بن عبد المحسن التركي،مؤسسة الرسالة،بيروت،لبنان،ط1، 1427ه، 2006م.

27-عزّ الدّين الخطيب و آخرون:نظرات في الثقافة الإسلامية، دار الشهاب،باتنة،الجزائر،(د.ط)، (د.ت).

28-علي الوردي:منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته، دار كافون،بيروت، لبنان،ط2، 1994م.

29-عماد الدّين خليل:-التّفسير الإسلاميّ للتّاريخ، دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط1، 1981م.
-مؤشّرات حول الحضارة الإسلامية،دار الصّحوة للنّشر و التّوزيع،(د.ط)، (د.ت).
-مدخل إلى الحضارة الإسلامية، المركز الثّقافي العربي،المغرب،ط1، 1426ه، 2005م.

30-غنيمي رأفت الشّيخ:فلسفة التّاريخ،دار الثّقافة للنّشر و التّوزيع، القاهرة،(د.ط)، (د.ت).
31-كولن ويلسن:سقوط الحضارة،تر:أنيس زكي حسن،دار الآداب، بيروت،لبنان، ط3، 1989م.
32-لجنة التّأليف في التّوحيد:المعالم الأساسية للرّسالة الإسلامية،دار التّوحيد، الكويت،ط1، 1399ه، 1979م.
33-عبد الله ناصح علوان:معالم الحضارة في الإسلام و أثرها في النهضة الأوربية،دار السلام للطباعة و النّشر والتّوزيع،ط1، (د.ت).
34-مالك بن نبي:-تأمّلات، دار الفكر المعاصر، دمشق،سوريا،ط1، 1979م.
-شروط النّهضة،تر:عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي،دار الفكر المعاصر،دمشق، سوريا، ط1، 1406ه،1986 م.
-القضايا الكبرى،دار الفكر المعاصر،بيروت، لبنان، ط1، 1420ه، 2000م.
-مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر:بسام الحركة،دار الفكر المعاصر،بيروت، لبنان،ط1، 1988م.
-وجهة العالم الإسلامي،تر:عبد الصبور شاهين،منشوراتanep، ط1، 1406ه، 1986م.
35-محمّد حسين:الإسلام و الحضارة الغربية، دار الفرقان، (د.ط)، (د.ت).
36-محمّد سعيد رمضان البوطي:-حوار حول مشكلات حضارية،الدّار المتّحدة للطّباعة و النّشر،مكتبة رحاب ،الجزائر،ط3، 1410ه،1990م.
-شرح الحكم العطائية،ج4،دار الفكر المعاصر،بيروت،لبنان،ط1، 1424ه، 2003م.
-كبرى، الكونيات الكونية-وجود الخالق ووظيفة المخلوق-،دار الفكر المعاصر،بيروت، لبنان، ط8، 1982م.
-من المسؤول عن تخلّف المسلمين؟،دار الشهاب،باتنة،الجزائر،(د.ط)، (د.ت).

-منهج الحضارة الإنسانية في القرآن،دار الفكر المعاصر،دمشق،سوريا، ط1، 1402ه،1982م.

37-محمّد عبد السّلام الخفاجي:الإسلام والحضارة الإنسانية،دار الكتاب اللّبناني،بيروت، (د.ط)، (د.ت).

38- محمد قطب:مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق،القاهرة، مصر،ط8، 1415ه،1994م.

39-محمد الهادي أبوريدة:الإسلام و الحضارة،تح:فيصل بدير عون،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط3، 2011م.

40-محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها،دار الوفاء للطّباعة و النّشر و التوزيع،المنصورة، ط1، 1994م.

41-مصطفى الشّكعة:الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون و نظرياته،الدار لمصرية اللبنانية، لبنان، ط3، 1413ه، 1992م.

42-ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:لسان العرب،دار صادر،بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

43-عبد المنعم الحفني:المعجم الشامل-المصطلحات الفلسفية-،مكتبة مدبولي،القاهرة،ط3، 2000م.

44-مولود عويمر:مالك بن نبي رجل الحضارة-مسيرته و عطاؤه الفكري-،دار الأمل للطباعة و النشر والتوزيع،(د.ط)، (د.ت).

45-نسلة حسن محمد:في تاريخ الحضارة الإسلامية،دار المعرفة الجامعية،(د.ط)،(د.ت).

46-النّسفي،أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود:التّفسير،ج3،دار الكتاب العربي،بيروت، لبنان،(د.ط)، (د.ت).

47-ويل واير ديورانت:قصة الحضارة،تر:زكي نجيب محمود،دار الجيل، بيروت، لبنان،(د.ط)،(د.ت).

48-يوسف القرضاوي:السنة مصدرا للمعرفة و الحضارة،دار الشروق،مصر، ط3، 1423ه، 2002م.

الرّسائل الجامعية:

*هدّي بوفضة:دور الدّين في فلسفة أرنولد توينبي-المسيحية نموذجا-،رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة،جامعة الإخوة منتوري،كلّية العلوم الإنسانيّة و العلوم الاجتماعيّة،قسم الفلسفة،2007م، 2008م.

المجلاّت:

*مجلة حراء الثّقافية،جامعة شعيب الدّكالي، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جديدة،المغرب،العدد14، 2009م.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الموضوع الصّفحة

المقدّمة.....أ

المدخل.....2

الفصل الأوّل:الحضارة عند العلماء

المبحث الأوّل:الحضارة في التّفكير الغربيّ.....9

المبحث الثّاني:الحضارة في التّفكير العربيّ.....20

الفصل الثّاني:عوامل قيام الحضارة و سقوطها من القرآن

المبحث الأوّل:عوامل قيام الحضارة من القران.....32

المبحث الثّاني:عوامل سقوط الحضارة من القرآن.....50

الفصل الثّالث:الحضارة في فهم البوطي

المبحث الأوّل:عناصر الحضارة.....66

المبحث الثّاني:عوامل تحجر الحضارة الإسلامية و ازدهار الحضارة الغربية.....86

المبحث الثّالث:كيفية انبعاث الحضرة الإسلامية من جديد.....90

الخاتمة:.....94

ملحق:التّعريف بالبوطي.....97

قائمة المصادر و المراجع:.....100

فهرس المحتويات:.....106